محمد عصمت

ضهر الحوت

عصمت، محمد
ظهر الحوت : رواية / محمد عصمت.
تحرير أدبي: دينا نسريني.

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2025.
214 صفحة، 20 سم.
تدمك : 978-977-820-284-7
أ- القصص العربية.
ب- العنوان : 813
رقم الإيداع : 2122 / 2025
الطبعة الأولى : يناير 2025.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم- محافظة الجيزة.
هاتف أرضي: 0235918808
هاتف محمول: 01000405450 - 01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com
• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**.
•جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُّ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أيِّ صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دونَ إذنٍ كتابيٍّ من الناشرِ، يعرضُ صاحبهُ للمساءلةِ القانونيةِ.

إهداء

إلى زوجتي العزيزة

التي بقدومها تلوّنت حياتي بالفرح، وعَرَفتُ معنى السعادة

شُكر واجِب

الصديق والأخ العزيز/ باسِـم الخشن

شُكرًا لكُل ما تفعله من أجلى طوال الوقت، وكُل مجهوداتك التى
تُقدِّمها بمُنتهى الأريحيّة من أجلي

الجميلة/ ريهام نبيل فاروق

مكسَب العام الأهم والأجمل على الإطلاق

العزيزة/ لارا فايز

التي يُغيِّر وجودها الكثير من الأشياء .. للأفضَل طبعًا

العزيزة/ دينا نسريني

شكرًا على كُل شيء

وأخيرًا وليس آخرًا هادى وإياد

بحبكم

تنويه

كُل الأحداث المذكورة مُستوحاة من أحداث حقيقيّة، وأي تشابه بينها وبين أي أحداثٍ أخرى هو مسئولية مُرتكبيها فقط، إذ لم يتوجّب عليهم أن يتصرّفوا بهذه البشاعة.

مُقدِّمة

استيقظتُ لأجِد نفسي وحيدًا في المنزِل، وكعادة أي طِفل صغير؛ شعرتُ بدفقةٍ من السعادة تغزو قلبي البِكر؛ قبل أن يتسلّل إليه القلق، فيعتصِره بقبضةٍ حديديّة، مُرسلًا جيوشًا من الأفكار المُخيفة إلى دِماغي.

ماذا .. ماذا سأفعل إذا لم يعودوا؟ إذا تركوني هُنا؟ وحيدًا؟ إذا اقتحم لص الشقّة الآن؟ ماذا سأفعل إذا .. وإذا .. وإذا ..

ارتجفتُ لعشرات الأفكار القاتِمة التي دارَت من حولي وهي تتراقَص كقبيلةٍ من الهنود الحُمر، لكِنني شرعان ما استجمعتُ شتات نفسي، وحاولتُ التهدِئة من روعي.

عندما تماسكتُ قليلًا، بدأتُ أفكّر فيما حدث .. وفيما سيحدُث! لقد قضيتُ فترة طويلة بين أحضان البحر، مما أرهق جسدي، ولطشني هواء البحر، فنمتُ عميقًا حتى إنني لم أُدرِك شيئًا مما يحدُث حولي، ويبدو أنهم اضطروا للخروج سواء لشراء شيءٍ ما من السوق القريب، أو لنُزهةٍ سريعةٍ في الهواء الطلق هربًا من الحر المُزعِج، كما يبدو أيضًا أنهم حاولوا إيقاظي، لكِن سطوة نومي كانَت قوية، لذا تركوني هُنا؛ أملًا في العودة قبل أن أستفيق.

لكِن حدث ما لم يكُن في حُسبانهم، واستيقظتُ أثناء وجودهم بالخارِج.

شعرت بالشقاوة تجري في عروقي، وانتفض جسدي بالحماس. هذه فُرصة لا تتكرّر كثيرًا، فكّرتُ في كُل الأشياء التي يُمكِنني القيام

بها الآن!

يُمكِنني تشغيل التِلفاز بصوتٍ عال، دون القلق من صراخ أبي وهو يأمُرني بخفض الصوت. كما يُمكِنني رفع عقيرتي بالغِناء كما أشاء، دون أن يُطالبني أحد بالتوقُّف عن «الجعير». ويُمكِنني كذلِك دخول الحمّام وترك الباب مفتوح.

لكِن لا، لن أفعل أيًا من هذه الأشياء، فميزة الشقاوة الأهم هي وجود مُتلقٍّ، بدون شخص ينزعِج من التصرُّفات السيِّئة .. لا يُصبِح لها قيمة، وتفقِد زهوتها.

حسنًا، لن أسمَح لهذه الوحدة بتخريب مزاجي الجيِّد، خصوصًا وأننا جئنا إلى الإسكندريّة لقضاء عُطلةٍ متنُها أسبوع، قبل عودتنا إلى القاهِرة؛ حيث الزحام والضغوط النفسيّة التي لا يُقدِّرها غير القاهريين، ناهيك طبعًا عن بداية الدراسة.

طبعًا، ترك والِدي العزيز الدُنيا وما فيها، واختار العجمي تحديدًا لعدّة أسباب، أهمها الهدوء وراحة البال، وهو ما يعني رُخص أسعارها في قاموس والِدي. لكِن لكُل شيء عواقِب .. حتى العجمي! إذ يُقال إن المنطِقة مسكونة، وإن أشباحها أكثر من سُكّانها.

لكِنني لن أُخيف نفسي، ليس الآن .. وأنا بمُفردي! بالإضافة لأنني كبرتُ وبقيت «راجِل» كما تقول السِت والدتي، قبل أن يُجيبها رءوف، شقيقي الأكبر بسُخرية: «هتكبري الواد يا حاجّة، دا يدوبك طالِع أولى إعدادي!»

لم تحِجّ والِدته، لكِنها تبتسِم عندما يُناديها رءوف بالحاجّة، وتُتمتِم

بصوتٍ خافت: «يسمَع من بُقّك ربِنا».

رءوف في الجامِعة، ويتصرّف كرجُلٍ يُعتمَد عليه، ويتحمّل المسئولية، والحق يُقال إنه يفعل ذلِك بكُل تأكيد.

شعرتُ بالطمأنينة قليلًا بعد انجرافي في التفكير في أفراد عائِلتي، خصوصًا رءوف .. ربنا يطوّل لنا في عُمره، وقرّرتُ فتح الشُبّاك الفطِل على الشاطئ، والجلوس قليلًا للاستمتاع بهواء الليل اللطيف، لحين عودتهم من .. حسنًا، أينما كانوا!

فتحتُ الثلاجة، فوجدتُ زُجاجة مياه غازيّة كبيرة تلفُظ أنفاسها الأخيرة، صببتُ ما تبقى منها في كوب صغير، ووضعتها جانبًا لتُبدّلها من البقّال في الصباح، وأخذتُ طبقًا من الترمِس، وجلستُ خلف النافِذة المفتوحة، مُستمتِعًا بوحدتي اللطيفة.

قبل أن يلفتَ نظري شخصٌ يجلِس هُناك على الشاطئ، محتلًا مقعدًا من تلك التي تُشبِه الشيزلونج. رءوف! لم أكُن لأُخطِئه قطّ بجسده النحيل وشعره الطويل المُتطايِر بخفّة مع هبّات النسيم.

تركتُ الكوب جانبًا، وهرعتُ مُرتديًا خُفّي البلاستيكي القديم، للجلوس مع رءوف قليلًا، إذ إنها فُرصة لا بأس بها لتزجيَة الوقت ريثما يعود بقيتُهم.

أغلقتُ باب الشقة، غير عابئٍ بجلب مُفتاحي، المُعلّق خلف الباب في مسمارٍ صدئ، لأنني مُتأكّد أن رءوف يحمِل مفتاحه معه. ركضتُ حتى قرّرَت الرِّمال الثقيلة الرطبة الإبطاء من سُرعتي وتهدِئة وطأة حماسي قليلًا.

أخذَت قدماي تغرقان في الرمال البارِدة، ورائِحة اليود تقتحِم أنفي وتسطل عقلي، كما أحرقتني عيني قليلًا من ملح البحر، لكِنَّ أيًا من هذا لم يَثنِني عن الذهاب إلى رءوف، الذي جلس ساكِنًا أمام البحر، يتأمّله في صمت.

بحثتُ عن كُرسي بحر آخر؛ لكِنني لم أجد. قرّرتُ الجلوس على الرِّمال، فلا بأس بذلِك. إذ يعرِف جميع المُصطافين أن قدومك إلى الشاطئ، يعني منح إذن كامِل للرّمل بالتسلُّل إلى كُل شيء في حياتك، والتشبُّث به باستماتة، رغم مُحاولاتِ تنظيفِه أو حتى الاستحمام، حتى يملّ المرء منه ويتركه وشأنه، حينها يفقِد الرمل شغفه ويتركك لحال سبيلك.

جلستُ أرضًا، بجانِبه، وقُلتُ له، دون أن أنظُر إليه: «فكّرتك معاهُم!»

لم يُجِبني رءوف، لكِنها لم تكُن مُشكِلة كبيرة، فأحيانًا ما يتحلّى رءوف بالهدوء، ويلتزِم الصمت التام، ويعشق الوحدة.

وهكذا، قرّرتُ الجلوس في صمت، لكِن شقاوتي كانَت أقوى مني، ولم أتحمّل الجلوس في صمتٍ وهدوء، لذا قُلت: «يا ريت مكونش بضايِق حضرتك يعني!»

لكِنه لم يُحرّك ساكنًا، ولم يُجِبني حتى بكلمةٍ واحدة.

حسنًا، أعتقِد أن رءوف سيظل رءوف، ولن يُغيّره شيء.

جلستُ بهدوء رغمًا عني، أتأمّل البحر الغارِق بين أحضان الظلام، والأمواج التي تُلاحِق بعضها البعض دون هدفٍ مُحدّد، وما إن تصِل

لهدفها حتى تتلاشى إلى كومةٍ من الزبد، وتلقى حتفها على الشاطئ، والقمر الذي احتلّ السماء فارضًا سطوته على الظلام، ومُبدّدًا القليل من سيطرته، والنجوم التي تناثرَت حوله لتملأ صفحة السماء بماساتٍ صغيرة تلتمِع بهدوء، ورائِحة الملح وطعمه اللذان تسلّلا رغمًا عني إلى أنفي ولِساني، ناهيك عن الحرقان الذي احتلّ مُقلتَي عيني، ولا يجِب عليّ نسيان القشعريرة الصغيرة التي تُهاجِم الجسد بين الحين والآخر بسبب النسيم البارِد الذي لفّني لفًّا هُنا.

فجأة، قال رءوف بصوتٍ عميق، دون أن يلتفِت إليّ: «قوم امشي!»

نظرتُ له بدهشة، وسألته: «إيه؟ ليه؟»

قال مُجدّدًا، بنفس الصوت العميق، دون أن يتحرّك من مكانه قيد أنملة: «قوم .. امشي!»

سألته، دون أن تُفارِقني دهشتي بدوري: «طب وإنت؟»

فجأة، وقبل أن يُجيبني على أسئِلتي، سَمِعتُ صوتًا مُلتاعًا يصرُخ بألَم، يأتيني من بعيد، فتتلاعَب به الريح، صوت الحاجّة، أُمي، تُناديني بخوف: «يا سعيد! إنت فين يا سعيد يا ابني؟»

انتفض قلبي بين ضلوعي، وشعرتُ بقشعريرة خوف تغزو جسدي بأكمله، ابتلعتُ ريقي بصعوبة، وشعرتُ ببعض الألَم يجتاح صدري. نهضتُ عن الأرض، ولم أنفض حتى يديّ أو سروالي من الرمال العالِقة به. سرتُ متراجعًا للخلف، مُبتعِدًا عن رءوف، الجالِس أمام البحر، نحو صوت أمي التي يصدح صراخها من النافِذة التي تركتها مفتوحة: «مكانش يومك يا ابني! مكانش يومك يا حبيبي!»

سَمِعته يقول من خلفي: «مينفعش تبقى هِنا! امشي!»

ازدادَت ضربات قلبي قوّة، استدرتُ .. وركضتُ مُبتعِدًا، ولم أنظُر خلفي. ركضتُ كما لم أركُض في حياتي من قبل. وكُلما اقتربتُ من العِمارة، خفق قلبي بقوّة، وأخبرني حدسٌ مُرعِب أنني لن أصِل في الوقت المُناسِب، كما أخبرني أيضًا بضرورة عدم النظر خلفي تحت أي ظرفٍ من الظروف، لكِن فضولي كان أقوى من أي حدس .. لذا غلبني أخيرًا .. ونظرتُ خلفي!

وأنا مُستعِد أن أُقسِم، بكُل أيمانات جميع المِلل والأديان، أنني لن أنسى ما رأيتُه في تلك اللحظة!

أبدًا!

ما حييتُ!

وقف رءوف عن كُرسي البحر، واستدار ليُراقِبني.

وفي تلك اللحظة، وأمام عيني، استطال، فلفّا طال .. لامَسَ رأسُه السماء، بينما انغرسَت قدماه في الرِّمال الناعِمة تحت وطأة وزنه، وطالَت أطرافه، حتى وصلَت أصابعه إلى الرِّمال، وانعقفَت رُكبتاه للخلف، لا للأمام، وشُقَّت عيناه بالطول.

قال بصوته العميق: «مكانش ينفع تبقى هِنا!»

تجمّدتُ في مكاني، وأخذتُ أتأمّل لحمَه وهو يتحلّل أمام عينيّ، وعظامه تخرُج للنور من تحت جروحه واهترائه، والديدان تزحف على جلده الرمادي المُتغضِّن.

شعرتُ بشيءٍ يجذبني للذهاب نحوَه، رغم الخوف الشديد الذي اعتراني، تحرّكتُ خطوة نحوه، وحاولتُ مُقاومة مشاعري، والتراجُع. لكِن جسدي أبى أن يُطيعني، واستمرّ في رحلتي إلى أحضان الجميع.

أفقتُ من ذهولي على صراخ أُمي وهي تستكمِل نحيبها: «يا حبيبي يا ابني! يا حبيبي!»

هززتُ رأسي للحظة، كانَت كافية لأتحرّر من سطوته، واستدرتُ .. راكضًا نحو المنزِل بكُل ما أوتيتُ من قوّة، وهذه المرّة .. قاومتُ مشاعري التي أجبرتني بمُنتهى القوّة والإلحاح لأنظُر خلفي مرّة أخرى.

ما إن وصلتُ إلى باب العِمارة، حتى ركضتُ صعودًا على السلّم، وصولًا إلى باب الشقّة. سَمِعتُ صراخًا ونحيبًا مكتومَين يأتيان من خلف الباب المُغلق، الذي طرقته في جنون، ووحشيّة، وعُنف. وما إن فتحت أختي الباب، حتى رأيتُ في عينَيها حُزنًا لم أرَه من قبل، سألتها: «فيه إيه؟»

أجابتني من بين دموعها: «رءوف!»

سألتها وقلبي يكاد يقِف: «ماله؟»

«سبناكُم نايمين، ونزلنا، رجعنا لقيناك على الشط، ولقيناه ميّت .. من بدري .. في سريره!»

ارتجف جسدي بشدّة ..

وفقدتُ وعيي أمام باب الشقّة!

(٠)

«وظائِف أفراد أمن في قرية سياحية بالساحِل الشمالي»

مطلوب أفراد أمن لقرية سياحيّة بالساحِل الشمالى:

- براتِب (٣٩٠٠) جنيه مصري على (٢٥) يوم عمل و(٥) أيام إجازة.
- براتِب (٤٤٠٠) جنيه مصري على (٣٠) يوم عمل.
- عدد ساعات العمل (١٢) ساعة.
- يوجد سكن، و(٣) وجبات، ومواصلات داخليّة.
- إقامة كامِلة.
- عقد سنوي، بزيادة سنويّة.
- والإضافي بأجر مُضاعَف.
- تأمين صحي، واجتماعي، وتأمين على الحياة.
- فُرَص للترقُّي، وإمكانيّة تثبيت الشِفت.

***

«مثوى لخدمات الموتى ومراسِم الجنازات»

لأول مرّة في مصر، تُقدِّم لك شركة مثوى جميع الخدمات اللوجستيّة التي تُغطّي جميع مراحِل تكريم المتوفى. وتشمَل خدماتنا على سبيل المِثال لا الحصر؛ إنهاء إجراءات تصريح الدفن، والإجراءات الرسميّة، والغُسل، وتجهيز الجُثمان، وتحضير المقابِر

والمدافِن، والنقل، وحجز قاعات العزاء والتأبين، ونشر النعي في الجرائِد والوسائِل الرقميّة، وتوزيع هِبات الصدقات على روح المتوفّى، والعديد من خدمات الدعم ما بعد الوفاة.

مثوى .. مساحتك لوداع الأحِباء!

***

«بسبب موجة الحر .. زيادة تخفيف أحمال الكهرباء لـ ٣ ساعات».

في آخر مُستجدّات خطّة تخفيف أحمال الكهرباء في مصر، كشف اليوم الأربعاء مصدر بوزارة الكهرباء أن مركز التحكُّم القومي بالكهرباء سيبدأ خلال الأيام القادِمة في خطّة تخفيف الأحمال لمُدة ثلاث ساعات بسبب نقص كميّات الوقود والغاز الطبيعي الذي يتم توريده لمحطّات الكهرباء، بالتزامُن مع ارتفاع مُعدّلات الاستهلاك.

وأضاف المصدَر أن ارتفاع درجات الحرارة وموجة الحر التي ستشهدها مصر خلال الفترة المُقبِلة ستؤدي إلى ارتفاع مُعدّلات الاستهلاك بشكلٍ عامٍّ حيث يتوقّع الخُبراء تخطّي الاستهلاك (٣٥) ألف ميجاواط.

وطالَب المصدر المواطنين بضرورة التعاوُن مع الحكومة والعمل على ترشيد الاستهلاك خاصّة من أجهزة التكييف والمُبرّدات، لافتًا إلى أن ضبط التكييف على درجة حرارة (٢٥) وإغلاق الستائِر والأبواب وغيرها من الإجراءات ستؤدّي إلى خفض الاستهلاك، بالإضافة إلى خفض قيمة الفاتورة الشهرية الخاصّة بالكهرباء.

***

«خسام كامِل يستعِدّ لفيلم (على سهوة) .. تعرّف على أبطاله وموعِد تصويره».

كشف صُنّاع فيلم (على سهوة) للنجم خسام كامِل عن قائِمة أبطال العمل الذي يتم تحضيره على قدمٍ وساق تمهيدًا للبدء في تصويره خلال الأيام المُقبِلة، حيث تضُم قائِمة الأبطال كُلًّا من: محمود رشاد، أحمد سامي، غُلا فوزي، وكراميلا، ومُحيي الدين حسن، ورامي زين الذي يُعد أحدَث اكتشافات خسام كامِل، الذي يؤمِن به ويُراهِن على أنه نجم الجيل القادِم.

الفيلم من تأليف حسن نور الدين، وإخراج نور شعبان، وبدأ أبطال الفيلم إجراء بروفات الترابيزة على الشخصيات التي يُقدّمونها في الفيلم، وذلِك تمهيدًا لتصوير أول مشاهِد الأسبوع القادِم، وتدور أحداث الفيلم في إطار كوميدي ساخِر لا يخلو من التشويق، ويُقدّم فيه خسام كامِل شخصيّةً جديدة لم يُقدّمها في أي فيلم من قبل.

****

«بعد مُحاولات إنهاء الخلاف بينهما .. خسام كامِل يعلّق: رامي زين زيّ ابني»

ردّ المُمثّل خسام كامِل على تعليق المُخرِج الشهير أدهم خالِد على الأزمة التي حدثَت بينه وبين النجم الشاب رامي زين، إذ وَصَفه خسام كامِل بأنه مثل نجله، وأنه لا يُجامِله مثلما يدّعي البعض.

وكان أدهم قد قال في برنامِج (حوار صريح) مع الإعلاميّة الشهيرة: نور شعبان إن رامي زين أصبَح نجم الشبّاك الأول في

الآونة الأخيرة، وأنه لا يحتاج لرأيه لأن الجميع يرى خطواته ونجاحاته، وتمنّى له المزيد من الإبداع.

قبل أن يُضيف: لم يُعجِبني تصريح حُسام كامِل عندما قال إنه اكتشف رامي زين وقدّمه للجمهور، ولولاه ما سَمِع أحد عنه، لأن الموهبة الحقيقيّة ستفرِض نفسها إما عاجلًا أو آجلًا، لكِنني مُتأكّد أن حُسام لم يكُن يقصِد التقليل من رامي أبدًا.

وردّ حُسام على أدهم قائِلًا: «حصل خير يا جماعة، رامي زين ابني وهو مُجتهِد ومُمتاز، وأعتقِد أنه سيصِل لنجاحاتٍ كبيرة قادِمة، خصوصًا أنه يضع تجرِبتي نُصب عينَيه، ويُطبّقها بحذافيرها. أتمنّى له التوفيق في قادِم الخطوات».

(١)

أستيقِظ من نومي شاهقًا كغريقٍ يصعَد فوق سطح الماء، أعتدِل على فراشي وأنشج بغنف، أواجِه صعوبةً في التنفُّس، أشهق .. ألهث .. أتنهّد، أحاول التماشك قليلًا، لكِنّ ضربات قلبي تأبى الهدوء، وتُحاوِل جاهدةً اختراق قفصي الصدري.

أضع يدي على صدري، وهي عادة ألجأ لها كُلما وجدتُ نفسي أسيرًا للفزع، ورغم برودة الشِتاء، أشعُر بمنامتي مُبلّلة .. بل منقوعة في العرق البارِد. لا ينفك هذا الكابوس اللعين يُطارِدني منذ وفاة رءوف.

بالطبع لم يُصدّقني أحد عندما استعدتُ وعيي، وأفقتُ من صدمتي، وقصصتُ عليهم رؤياي. اتهموني بالخبل، والجنون، والخيال الواسِع، والكذِب، وعدّة تُهَمٍ أخرى لا أذكُرها الآن. نظرتُ في أعيُن الجميع، ولم أجِد بينهم من هو مُستعِدٌ لدعمي أمام سيل التُهم هذه.

وهكذا تعلّمتُ من هذا الكابوس درسًا قيّمًا، ألّا أحكي تلك القصّة مرّة أخرى قط، لذا تناسيتُها، ودسستها في رُكنٍ بعيدٍ مُظلم من ذاكرتي. والآن، رغم مرور ثلاثين عامًا، والعديد من التجارِب الصعبة، والكثير من قسوة الحياة، إلا أنها لا تزال تُطارِدني في كوابيسي بلا رحمةٍ ولا هوادة.

نهضتُ من فراشي، تحسّستُ الأرض البارِدة حتى وجدتُ خُفّي البلاستيكي، انتعلته وسرتُ مُترنّحًا نحو دورة المياه المُلحقة بغُرفتي. حسنًا، هذه إحدى مزايا العمل كفرد أمنٍ في قرية الفيروز

السياحيّة بالساحِل الشمالي، ناهيك طبعًا عن الهدوء الذي يُخيّم على القرية طوال فصل الشِتاء، إذ تخلو على عروشها طواله.

فتحتُ الصنبور، ووقفتُ مُنتظرًا الماء البارِد الذي طالَت غيبته ولم يأتِ، مددتُ يدي تحت الحوض وأخرَجتُ زُجاجة قديمة مليئة بالماء البارِد، صببتُ منها ما يكفيني، وضربتُ به وجهي بعُنفٍ قليلًا، أرجو التخلُّص من كابوسي. استندتُ على حافَة الحوض للحظة، شاعرًا ببرودته تحت كفيّ، مُراقبًا قطرات الماء البارِد تُغادِر وجهي.

عدتُ إلى غُرفتي، ونظرتُ في ساعتي، الثانية بعد مُنتصف الليل، باقي عدّة ساعات على الفجر، تأمّلتُ فراشي الدافئ بلَوم، لقد نهضتُ وغسلتُ وجهي مُعتقِدًا أن الصُبح قد حل، لكِنه خدَعني، يبدو أنه ملّ رفقتي، والآن، لن أستطيع العودة للنوم مرّة أخرى.

تنهّدتُ وأنا أجلِس على طرف فراشي، مسحتُ أنفي بظهر كفّي، ثُم اتخذتُ قراري. سأخرُج لأتدبّر شئون القرية قليلًا، إذ أنني لستُ من مُحبّي الجلوس في المنزِل، أو الاستسلام للهدوء، لأن الهدوء يزيد من دوشة دماغي.

ارتديتُ ملابِسي على عُجالة، وخَرَجتُ من غُرفتي مُسرعًا، ضربتني لفحة البرد، فلففتُ الكوفيّة الصوفيّة الحمراء التي أعطتها لي والِدتي حول عُنقي، وتأمّلتُ البُخار المُتصاعِد من بين شفتيّ مع أنفاسي القصيرة، تنهّدتُ مرّة أخرى، قبل أن أخرُج للسير على الشاطئ، في المنطِقة التي تفصِل بين البحر والشاليهات، مُجرّد شريط مُمهّد، مرصوف بالبلاط الفاخِر، الذي طالته يد الزّمال فلوّثته، وأخذتُ أتأمّل الشاليهات المُظلِمة المهجورة.

كلها شهور والفِلل تشغي بني آدمين، وساعتها الونس هيملى القرية.

تنهّدتُ وأنا أتأمّل الشاليهات القليلة المأهولة بالسُكّان، قبل أن يلفِت انتباهي أحد الشاليهات، إذ رأيتُ نافِذة الدور الأول مفتوحة، وبصيص ضوء من بين خصاص إحدى نوافِذ الدور الثاني!

غريبة! الفيلا دي مكانش فيها حدّ من كام يوم! يمكِن حدّ من صُحابها جه زيارة قُصيّرة ولّا حاجة! حاكِم الجماعة الأغنيا دول عليهم حاجات!

سرتُ حتى مكتب الأمن، ولحُسن حظي وجدتُه مُغلقًا، إذ لم يكُن هُناك في القرية سوايَ ومُدير القرية وزميلي محمد المسئول عن أمن البوابة الخارجية. ويبدو أن الجميع نيام، لا أحد مُستيقِظ غيري، جيّد .. فالونس أحيانًا ما يزيد من همّ القلوب.

فكّرتُ في الخروج للتحدُّث مع رجُل الأمن على البوابة بالخارِج، لكِنني شرعان ما تذكّرتُ أنه مسئول عن أمن بوابتَي قريتَين أخريَين في الشِّتاء، وربما يكون في إحدى القريتَين الأخريَين الآن. فكّرتُ في المُجازفة والخروج، علّني أجده لئزجّي الوقت ونقتُل الملل، لكِنني ارتجفتُ من شدّة البرد، لذا شرعان ما تخلّيتُ عن تلك الفكرة.

تنهّدتُ، وتوقّفتُ مكاني.

وبعدين في الملل ده؟ هتعمِل إيه يا سعيد في الوقت المِتأخّر ده؟ وهتتصرّف إزاي دلوقتي عشان تخلّص على الملل ده قبل ما يخلّص عليك؟

وكأن القدَر سَمِعني، وقرّر التصرُّف.

شرعان ما سَمِعتُ من يُناديني من خلفي: «سعيد .. يا سعيدا!»

اسثُر يا رب!

نظرتُ خلفي ورأيتُ صاحِب القرية، يرتدي قميصًا وسروالًا، على عكس عادته في ارتداء بدلة كامِلة، يُسرِع خلفي. تحرّكتُ نحوه بشرعة، في مُحاولةٍ لإعطاء كُل ذي حقٍّ حقه، فليس من الطبيعي أن أقِف مكاني، مُنتظرًا صاحِب القرية أن يأتيني حيثما أقِف.

وضع يدَه على كتِفي، وقال وهو يتنفَّس بشرعة: «زُحت لك الأوضة ملقيتكش، قُلت أكيد بتشوف أحوال القرية».

أجبته: «دا شُغلي يا فندِم». مُقرِّرًا عدم البوح بكابوسي، وقلقي، وعدم قُدرتي على الرجوع إلى النوم مرّة أخرى. ثُم انتبهتُ لتصريحه بذهابه إليّ حتى باب غُرفتي، ولا بُد أنه أمر جلل، لذا سألته: «خير يا فندم؟»

أجابني وهو يتحرّك: «حُسام بيه يا سيدي، بيشتكي إن حدّ سرَقه».

انطلقتُ خلفه في خطواتٍ سريعة، وسألته بدهشة: «تاني؟ هو مَبيبطلش شكوى؟»

«صُداع، بس مُضطرّين نستحمِله، في الأول وفي الآخر دا مالِك. عايزك تروح له، وتشوف مُشكِلته إيه».

اعترتني الحيرة، وسألته: «هعمِل له إيه طيب؟»

نظر إليّ بدهشة، وكأنني أسأله سؤالًا بديهيًا، قبل أن يقول: «اعمل

حاجة مُختلِفة المرّة دي، شوف بتعمِل إيه كُل مرّة .. وغيّرا أنا اللي هقولّك يعني يا سعيد؟»

أبتلِع ريقي في صعوبة، لا أستطيع ولا أُحِب التعامُل مع هؤلاء الأغنياء، ومع تحكُّماتهم، لكِنني لا أستطيع أن أرفُض له طلبًا كذلِك، لذا قُلت في استسلام: «أمرك يا فندم .. هتصرّف».

نظر لي بشك، وكأنه يشُك في قُدرتي على تدبُّر الأمر، قبل أن يقول: «بُص يا سعيد، اعمل نفسك بتحقّق في الموضوع، اسأله شوية أسئِلة، دوّر في المكان، افتح تحقيق، اتصرّف يا سعيد يعني».

حسنًا، هذه خطّة لا بأس بها. وهكذا قُلت له: «حاضر يا فندم، اعتبره حصل خلاص».

فجأة .. وقف في مكانه، فوقفتُ بدوري. تأمّل الشاطئ للحظة، ثُم همس، وكأنه يُحدّث نفسه: «يا رب لأ .. يا رب لأ والنبي يا رب!»

لم أفهَم ما يتحدّث عنه، حاولتُ النظر إلى الشاطئ، لكِنني لم أجِد سوى العتمة والظلام في انتظاري. لم تفُتني رؤية القشعريرة التي ارتعد بها جسده، رغم الظلام والبرد. نزل من على الممر المُمهّد، وتحرّك بشرعة فوق الرّمال، غير عابئ بمُحاولة الرّمال الرطبة القبض على قدمَيه. لم أجِد بُدًّا من اللحاق به، مُتجاهلًا الشعور اللعين الذي أكرهه منذ .. منذ حدث ما حدث!

سرتُ خلفه، مُحاولًا مُجاراة سُرعته، ومُتجاهلًا قبضة الهواء البارِد التي بدأت تعتصِر رئتي، والألَم الحارِق الذي اجتاح ساقيّ، حتى وقف أمامها. تلك الصخرة الكبيرة التي تختبئ تحت سطح الماء، فلا

يظهَر منها سوى سطحها البيضاوي الذي يخترِق الماء فيبدو ظاهرًا للعيان، والمُسمّاة بـ «ضهر الحوت»، وهو أيضًا الاسم الذي تشتهِر به قريتنا.

قرية ضهر الحوت!

لكِن الحوت لم يأتِ بظهره خاليًا هذه المرّة، بل حمل لنا مُفاجأةً غير سارّة!

نظر لي مُدير القرية، ورأيتُ الفزع يتراقَص في عينَيه، قبل أن يبتلِع ريقه بصعوبة وهو يسألني بغير تصديق: «يا نهار أسود .. هو دا بني آدم؟ ميّت؟»

حككتُ ذقني قليلًا، قبل أن أهزّ له رأسي بالموافقة .. إنها فعلًا جُثة «بني آدم .. ميّت»!

(٢)

قد يعتقِد المرء أن رؤية جُثّة للمرّة الأولى قد يكون أمرًا عاديًا، وأن رؤيتها لا تختلِف كثيرًا عن رؤية أحد الأحياء .. لكِن الأمر ليس كذلِك .. أبدًا.

وقد يعتقِد المرء أيضًا أنها قد تكون أمرًا استثنائيًا، وأن رؤيتها ستغيّر الكثير من الأشياء في نفسه .. لكِن الأمر ليس كذلِك أيضًا .. أبدًا.

وقفتُ أمام الجُثّة وبداخلي تختلِط الكثير من المشاعِر، الخوف أمام الجُثّة، والرُعب في مواجهة الموت، والفضول للاقتراب، والرغبة في تفحُّصها، وغيرها وغيرها من المشاعِر. لكِن أكثرَ ما لفت نظري وجذب انتباهي هو أنفاس السيِّد المُدير المُتقطِّعة.

تنفُّس الرجُل وكأنه يُصارِع فيلًا جثم على صدره، أو رُبما هو قطيع فيلة بأكمله. نظرتُ إليه، فرأيتُ جبهته، رغم الظلام والبرد، تتفصّد بالعرق. وقف بجواري لاهثًا، وعيناه تتّسِعان بعُنفٍ، مدّ يدًا مُرتعِدة وفَتَح زِرّين من أزرار قميصه، ورأيتُ صدره من تحت القميص، يعلو وينخفِض بسُرعة.

رفع يده المُرتعِدة ومَسَح جبهته بظهر يدِه، قبل أن يأخُذ نفسًا عميقًا ويقول: «يا نهار أسود».

عقدتُ حاجبيّ، وشعرتُ بالدهشة تغزو قلبي، ورغم أنها مرّتي الأولى في رؤية جُثّة أمامي، إلا أنني شعرتُ بدهشةٍ أكبر وفضولٍ أكثر لرؤية رجُل مثلِه يشعُر بمثل هذا الخوف والقلق في مواجهة

جُثَّة.

اقتربتُ منه، ووضعتُ يدي على كتفِه، وقُلت مُطمئِنًا: «ما تخافش يا فندِم، كُل حاجة هتبقى كويِّسة إن شاء الله».

التفتَ لينظُر إليّ، لكِنه لم ينبس ببنت شفة. وعاد لينظُر إلى الجُثَّة المُستلقية فوق الصخرة.

تبعثه بدوري، وتأمّلتُها تحت ضوء القمر. جُثَّة لرجُل يبدو في مُنتصف العُمر، هاجر جسده مرحلة الصِّبا، لكِنه لم يصِل إلى شيخوخته بعد، عارٍ تمامًا، يبدو رياضيًا ودائِم الاهتمام بنفسه وذقنه الحليقة، بشعرٍ ناعمٍ متوسّط الطول، ولولا الرمال المُلتصِقة بوجهه وشعره لقُلتُ إنه وسيم بشكلٍ ملحوظ.

لكِنه لم يمُت غرقًا. فإحقاقًا للحق .. لا يطعَن البحر ضحاياه من الغرقى بمثل هذه الوحشيّة.

وحشيّة تشي بمعرفة القاتِل بضحيته .. وبوجود تاريخٍ وماضٍ يجمَع بينهما.

أفقتُ من خيالاتي على صوت الرجُل وهو يقول: «يا نهار أسود .. يا نهار أسود!»

ربتُّ على كتفِه مرّةً أخرى، وقُلت له بصدق: «متقلقش والله .. إنت قلقان ليه؟»

نظر إليّ بدهشة، قبل أن تتبدّل ملامِحه وتمتلئ بالغضب، وهو يقول: «قلقان ليه؟ أنا دفعت تَمَن المولِّد الجديد! دا أنا صرفت دم قلبي في التجديدات! أنا حطّيت كُل اللي ورايا واللي أُدامي في

تجديدات القرية السنة دي!»

وهُنا انتبهتُ للأمر .. فكُلٌّ يُغنّي على ليلاه! وأنا الساذج الذي اعتقدته هلع حُزنًا على روحٍ أُزهِقت بوحشية! لكِنه لم يُفكّر سوى في قروشٍ صُرِفت وتجديدات نُفّذت!

لم أجِد ما أُعقّب به على فزعه، لذا قرّرتُ التزام الصمت، كيلا أنطق بما يُثير مشاعِره المُلتاعة أو قلبه الوجِل.

قال بصوتٍ خافتٍ، وكأنه يُحدّث نفسه: «الدُّنيا باظِت .. كُل حاجة باظِت خلاص!»

ربتُّ على كتفِه مرّة أخرى، وقُلت: «إن شاء الله لأ، كُل حاجة هتظبُط صدّقني».

نظر إليّ قائِلًا: «هو إنت واقِف تعمِل إيه هنا؟»

شعرتُ بالدهشة، إذ يُخاطبني وكأنه يراني للمرّة الأولى. ارتبكتُ قليلًا، قبل أن أستجمِع شتات نفسي، وأقول: «في انتظار تعليمات سيادتك يا فندِم».

أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول: «روح مكتب الأمن اللي على بوابة القرية، وبُص على الكاميرات، شوف لو حدّ دخل أو خرج النهاردة، وتعالى قولّي». صمتَ للحظة، وتأمّل الجُثة، قبل أن يقول آمرًا: «اجري».

تردّدتُ للحظة، قبل أن أحسِم أمري وأحثّ الخُطى نحو مكتب الأمن، المُلاصِق لبوابة القرية الأخيرة، والذي يحتوي على بعض الأجهِزة والهاردات المسئولة عن كاميرات مُراقبة القرية، والتي لا

تستحِقّ لقب كاميرات عمومًا لأنها بضع كاميرات قليلة، لا يتجاوَز عددها أصابِع اليد الواحِدة، ولا تُراقِب شيئًا سوى بوابات القريَة فقط لا غير، ولا تُتابِع أو تُراقِب أي قِلل أو شاليهات؛ حفاظًا على خصوصيّة السادة البهوات!

أخرجتُ مفاتيحي من جيبي، وبيدٍ مُرتجِفة بعض الشيء، فتحتُ باب الغُرفة، وجلستُ أمام الأجهِزة.

أمسكتُ بالـ «ماوس»، وبعدّة حركات حفظتُها عن ظهر قلب، فتحت «فولدر» تسجيلات الكاميرات ليوم أمس، تابعتُ الكاميرات، لكِنني لم أجِد شيئًا، لا شيء .. لا جديد .. ولا قديم..

عُدت لتسجيلات أول أمس، ولم أجِد فيها شيئًا يُذكَر أيضًا.

وعلى مدار ساعة تقريبًا .. لم أواجِه أو أجِد سوى مللٍ يتبعه ملل، يليه ملَل يسبِقه ملل، كما أنني لم أجِد شيئًا تقريبًا، لم يدخُل أحد .. ولم يخرُج أحدا!

نظرتُ في ساعتي، أراقِب المُطاردة التي لا تنتهي بين عقرب الثواني والوقت، ثُم تنهدتُ ونهضتُ لأخرُج من الغُرفة، مُغلقًا بابها خلفي.

لطالما تخيّلتُ أن شيئًا سيحدُث في القرية، وأنني سأساهِم في حلّه، مُتخيلًا مدى براعتي ومهارتي في التحليل والاستنتاج، التي رغم أنني لم أكتشِفها بعد، إلا أنني شِبه مُتأكّد من أنها في انتظار الحدث الذي سيُحرِّرها بداخلي.

وما إن حدث ما رجوتُه .. حتى وجدتُ نفسي مُجبرًا على السقوط

في فخٍّ من الملل، غير قادِر على التصرُّف في أي شيء أو اتخاذ أي قرارٍ من أي نوع.

ساقتني قدماي إلى الشاطئ، أرجو نظرةً أخيرة على الجُثّة، علّني أجِد ما يُساعِدني في إرضاء فضولي أو إشباع رغبتي في المعرفة. وصلتُ إلى الشاطئ، ووقفتُ أمام ظهر الحوت، لكِنني لم أجِد شيئًا.

رغم أن الإضاءة قد أصبحت أفضل قليلًا، لأن النور بدأ يشقُّ عتمة السماء بخيوطه، مُنيرًا القرية قليلًا، لكِنني لم أجِد لها أثرًا! لا شيء .. لا شيء على الإطلاق!

مُجرّد شاطئ فارِغ تمامًا، وبحر واسع تمامًا، وظلام بدأ يتبدّد على يد خيوط الفجر الأولى!

لكِن لا جُثث .. ولا قتلى .. ولا جرائِم غامِضة!

يبدو أن المُدير نقلها من مكانها لغايةٍ في نفس يعقوب.

هكذا تركتُ الشاطئ، مُثقلًا بمزيدٍ من الأسئِلة، وتحرّكتُ نحو مكتب السيِّد المُدير، طرقتُ الباب، فسَمِعته يقول: «تعالى يا سعيد .. ادخُل».

دخلتُ الغُرفة، رأيته يفتح زُجاجة ماء صغيرة، ويضع حبّة دواء بيضاء صغيرة تُشبِه القلب كما يرسمه الأطفال في فمه، ويبتلِعها بمُساعدة جُرعة ماء كبيرة، أنهى نصف الزُّجاجة تقريبًا، ووضعها على المكتب دون أن يُكلِّف نفسه عناء إغلاقها.

مسح فمه بكفِّه، وسألني: «ها .. لقيت إيه؟»

أجبثه ببعض القلق: «مفيش عربيات لا دخِلت ولا خرجِت من القرية على مدار يومين كاملين يا فندم!» ثُم أومأتُ برأسي نحو علبة الدواء وسألته: «حضرتك كويِّس؟»

مسح عرقَه بظهر يدِه، وقال: «أنا تمام، هو الضغط بس .. خدت الحبّاية عشان حسّيت إني مش تمام».

أجبته: «بالشِّفا إن شاء الله».

قرأت اسم الدواء: «كونكور ٥ مجم .. لعلاج ارتفاع ضغط الدم».

حسنًا، يجِب أن يهدأ قليلًا وإلا مات كمدًا!

سألني: «مُتأكِّد؟ محدّش لا دخل ولا خرج؟»

«مُتأكِّد مية في المية يا فندم، وحضرتك تقدر تتأكِّد بنفسك لو تحِب».

لوّح بيدِه رافضًا الفكرة وقال: «أنا واثِق فيك يا سعيد، بس دا إزاي دخل هِنا؟ يمكِن مدخلش بعربية؟»

هززتُ كتفي، رافضًا التفكير في حضرته، إذ لا يُحِب المسئولون أن يُفكِّر الموظّفون، لأن هذا يجعلهم يبدون أغبياء.

أتذكّر أن مُديرًا سابِقًا لي في أحد المصانِع، قد صاح بي عندما فكّرتُ في فكرةٍ لزيادة إنتاجيّة المصنع: «لمّا إنت تفكّر .. أمشي أنا بقي!»

قال وهو يتجرّع جُرعةً أخرى من الماء: «طيب تفتكِر نبلّغ الشُرطة؟»

سألته بفضول: «طيّب .. حضرتك نقلت الجُثّة ليه طالما هنبلّغ الشُرطة! مش المفروض نسيب كُل حاجة مكانها عشان البصمات؟»

رفع حاجبَيه ونظر إليّ بدهشة قائِلًا: «جُثّة إيه اللي اتنقلِت؟ أنا منقلتش حاجة يا بني آدم!»

أجبته بدهشة: «مفيش جُثّة يا فندِم! أنا قُلت حضرتك نقلتها!»

نهض عن مقعده وهو يقول بدهشة: «هنقِلها أودّيها فين بس؟»

خرج من مكتبه، فتبعتُه دونما نِقاش، وفي غضون دقائِق .. كُنا أمام ضهر الحوت .. الخالي .. نتبادَل النظرات في ضوء الفجر الخافِت، والدهشة تكاد تقفِز من أعيُننا، أما قلوبنا فأبت الهدوء.

سألني هامسًا: «طيب إيه؟ كان بيتهيألنا؟»

أجبته: «أنا عارِف وحضرتك عارِف إننا شُفناها سوا!»

نظر إليّ وقال: «لأ .. لا أنا ولا إنت شُفنا حاجة .. إنت فاهِم؟»

سألته: «يعني إيه؟»

أجابني بصرامة: «يعني مفيش جُثّة .. مفيش حاجة .. دي جتلي من عند ربنا!» ثُم نظر إليّ وقال بوعيدٍ وحشي: «ومش هسمَح لا ليك ولا لغيرك إنه يبوّظ لي الموسِم بعد ما اشتريت مُولّد جديد ودفعت تكاليف التجديد والصيانة .. مفهوم؟»

(٣)

حلبة مُلاكمة، يتراقص بداخِلها مُلاكِمان، أحدهما يرتدي قُفاز مُلاكمة أحمر، وسروالًا أحمر. أما خصمه، فيرتدي اللون الأزرق. يتراقصَان لا يتلاكمان، لأن أحدهما لم يلمس الثاني بعد، يتقافزان بعضهما في مواجهة بعض، وكِلاهما يبحث عن ثغرةٍ ليُهاجِم خصمه.

هكذا شعرت، وهكذا تصارَع بداخلي الضمير .. والخوف!

الضمير الذي يُملي عليّ ضرورة تجاهُل هذا الكلام، فهُناك روح أُزهِقَت، وهُناك قاتِل حُر طليق!

والخوف الذي يُمليه عليّ جيبي الفارِغ وظروف الحياة الصعبة، لأنني لو عارضتُ هذا الرجُل، الذي اشتعلَت نيران الجنون في عينَيه، لفقدتُ وظيفتي ومصدَر دخلي الوحيد.

تعالَت أصوات الجماهير، وسَمِعتُ زئيرهم يملأ الحلبة، يصرخون ليبثُّوا الحماس في قلوب المُلاكمَين، كفاكُما تقافزًا .. كفاكُما رقصًا .. لقد جئنا لأجل اللكمات .. جئنا للضرب والدِّماء.

وبسُرعة .. وَجَد أحدهما ثغرة، وضَرب خصمه في وجهه، ضربة قوية .. مُحكمة .. وقاضية!

وبسُرعة أيضًا .. سقط الآخر مَغشيًا عليه تحت قدميه.

ووقف المُلاكِم الأحمر مُنتصِرًا .. تعالى هتاف الجماهير، ورفع المُنتصِر يديه عاليًا.

وأعلن المُذيع الداخلي النتيجة ..

«أيها السادة .. وكالعادة .. انتصر الخوف .. ومات الضميرا»

ما إن سَمِعتُ نتيجة اللِقاء، حتى حسمتُ أمري، وقُلت دون ذرة تردُد: «مفهوم يا فندِم».

نظر إليّ لثوانٍ، رأيتُ فيها وعودًا لما سيفعله بي إن فتحتُ فمي أو نطقتُ بكلمة، وفَهِمت التهديد الذي لم يبُح به، والكلِمات التي لم تُفارِق شفتَيه، فابتلعتُ ريقي بصعوبة، وكرّرتُ قولي: «مفهوم حضرتك».

لم ينطِق بكلمةٍ أخرى، حتى رنّ هاتِفه ليقطَع الصمت الذي ساد فيما بيننا، نظر في عينيّ للحظةٍ أخرى، قبل أن يُخرِج هاتِفه وينظُر في شاشته، قبل أن تظهَر أمارات الضيق على مُحيّاه وهو يقول: «هي ناقصاك إنت كمان!»

ثُم تهلّلَت أساريره بطريقةٍ لم أرَ لها مثيلًا من قبل وهو يُجيب على الهاتِف: «دا إيه النور دا على الصُبح؟ طمّني عليك يا حُسام بيه؟»

أنصتَ للحظة، قبل أن ينظُر إليّ ويقول: «والله أبدًا .. إحنا نقدَر نطمّن سيادتك برضه؟ دا حتى سعيد أُدامي أهو وكُنت لسّه بوصّيه يهتم بحضرتك». ثُم سألني: «بذمّتك كُنت لسّه بقولّك إيه؟»

ولم ينتظِر إجابتي، بل أشار لي أن أصمِت، وهو يقول: «لأ إزاي بقى .. حالًا هييجي لحضرتك».

وأشار لي لأنصرِف، فلم أُكذِّب خبرًا، تحرّكتُ من أمامه وأسرعتُ نحو شاليه حُسام كامِل، لكِنني ما إن تحرّكتُ لخطوات .. حتى قادني فضولي لأنظُر خلفي، ألقيتُ نظرة على مُدير القرية الذي

يتحدّث في الهاتِف، ثُم على ظهر الحوت الخالي خلفه، وفي ذهني لا يدور سوى سؤالٍ واحِد: *مين اللي له مصلحة في إن الجُثّة دي نختفي؟*

والحقيقة أن الإجابة كانَت واضِحة تمامًا، حتى إنني همست بها لنفسي على الفورا!

***

ما إن اقتربتُ حتى وجدتُ حسام كامِل يقِف في حديقة شاليهه، يرتدى «ترينج» كما نُطلِق عليه، أو بدلة رياضيّة كما يُطلِقون عليها، من إحدى الماركات العالمية الشهيرة، اقترب منّي وهو يقول بغضب: «يعني أنا اتسرقت وبلّغتكم .. وأنتم ولا على بالكُم!»

رسمتُ ابتسامةً صادِقة على شفتي، وحاولتُ تنحية قلقي جانبًا، وأنا أُجيبه: «والله أبدًا يا فندم، هو إحنا نقدَر». ثُم قرّرتُ أن هذه المُجاملة ليسَت كافية، فأضفت: «دا أنا حتى بحِبّ حضرتك وبتفرّج على كُل أفلامك من وأنا صُغيّر».

نظر إليّ بغضبٍ وقال: «إنت جاي تحزّني على عُمري؟»

لم تتغيّر ملامِحه كثيرًا عن تلك التي احتلّت أفيشات وواجِهات السينمات لفترةٍ طويلة، يُمكِننا القول، وبلا أدنى قذر من المُبالغة، أن حُسام كامِل هو المُمثّل الذي غيّر مسار السينما المصرية، بل وربما مسار السينما العربيّة بأكملها، إذ اشتُهِر بلعبه للأدوار الكوميدية ببراعةٍ وخفّة دمٍ يُحسَد عليها. مثّل ثلاثة أو أربعة أفلام حقّقوا ما لم يُحقّقه أي فيلمٍ آخر في ذلِك الوقت على مستويي الإيرادات

والانتشار بين الشباب، حتى تحوّل لأيقونة من أيقونات الكوميديا العربية، وهو ما دفعهم لإطلاق اسمِه على أحد دورات مهرجان المسرح العربي رغم صِغَر سنّه، كمُكافأة له على نجاحه المُبهِر. لكِنه شرعان ما تحوّل إلى «نوكيا»، ووقف مكانه ثابتًا، رافضًا التطوُّر، وهو ما أسقطه من عقول الشباب، الذين شرعان ما نسوه ونسوا أدواره، وتحوّلت أفلامه إلى مجال للسُخرية من المُمثِّل الذي يرفُض التطوُّر ويُصمِّم على التمسُّك بالكوميديا الحجرية القديمة، فهرب إلى هُنا بعيدًا عن السُخرية والتنمُّر، لكِنه ما زال يعيش حياته كنجم شِباك، رافضًا الاعتراف بأفول نجمِه.

أجبته بسُرعة: «مش قصدي لأ .. دا أنا عايز أقول لحضرتك بس إننا والله ما نقدَر».

قال وهو يُشير إلى الشاليه: «أنا اتسرقت يا سعيد .. وأنتم مش بس مش شايفين شُغلكم بما يُرضي الله .. لأ دا كمان لمّا بتّصِل أقول أنا اتسرقت .. محدّش بيهتم».

أجبته، دون التخلّي عن ابتسامتي: «إزاي بس؟ أنا بنفسي ههتم بالموضوع».

قال بغضبٍ صادِق: «كُل مرّة بتقول كدا .. ومفيش حاجة بتحصَل».

كدتُ أجيبه: *ما عشان كُل مرّة حضرتك بتلاقي الحاجة بعد شوية، وبتطلع مفيش حاجة إتسرقِت!* لكِنني ابتلعتُ كلماتي، ولم أبُح عن مكنونات صدري أمامه.

بدأ يقول: «كُل مرّة كان بيتسرق منّي تذكار من أفلامي، أو سكريبت قديم، بعد ما حد الله يلعنه، سرّب عنواني هنا للناس، والمُعجبَين المجانين بقوا ييجوا يسرقوني عيني عينك .. بس المرّة دي لأ، المرّة دي اللى اتسرق .. ».

شرعان ما انجرفَت أفكاري فيما حدث ..

من المعروف أن الجُثث لا تتحرّك من تِلقاء نفسها، وأن الهلاوِس لا تأتي جماعة!

ومن المعروف أيضًا أننى أتحلّى برزانة عقل تجعلنى لا أتخيّل ولا أتصوّر أشياء غير موجودة!

الجُثة حقيقيّة .. ونُقِلَت من مكانها بيدِ فاعِل .. لكِنني ..

انتشلني من بحر أفكاري وهو يسألني: «إنت معايا؟ ولا مع الأسف؟»

تظاهرتُ بالضحك، فقد كان هذا الإفّيه مُميّزًا للغاية وقت رِدّه للمرّة الأولى في أحد أفلامه، وقُلت له: «مع حضرتك والله».

قال: «تمام .. أنا عايز فلوسي بقى».

سألته بدهشة: «فلوسك؟ فلوس إيه؟»

أجابني بغضب: «مش بقولّك مش معايا، بقولّك اتسرق مني فلوس .. والمرّة دي مش هسكُت! فيا تلاقي الحرامي بمعرفتك .. يا هيبقالي تصرُّف تاني!»

قُلتله: «حاضر يا فندم، اعتبره حصل خلاص».

صاح: «زي كُل مرّة .. حاضر يا فندم و».

غُدتُ إلى أفكاري مرّة أخرى، مَن الموجودين في القرية؟ بمَن يُمكِنني الاستعانة الآن؟ مُدير القرية لن يُساعِدني .. ولن يسمَح لي بفتح الموضوع أو حتى التفكير فيه .. لأنه المُستفيد الأكبر من اختفاء الجُثّة! رُبما أكبر من القاتِل حتى!

لكِن .. لحظة!

عَرَفتُ من الذي سيُساعدني!

للمرّة الثانية، ينتزعني من أفكاري بعنفوان صياحه وحدّة صوته وهو يقول: «إنت يا ابني!»

قُلت له في عُجالة: «تمام والله، اعتبر الموضوع دا انتهى خلاص.. أنا هروح لأستاذ خالِد المُدير دلوقتي، والموضوع دا اعتبره خلِص خلاص».

تركته ورحلتُ، ورأيتُ الدهشة في عينَيه، لكِنني كُنتُ قد حسمتُ أمري.

وبخطواتٍ سريعة توجّهتُ إلى مكتب السيّد المُدير لأطلِعه على آخر المُستجدّات!

(٤)

وقفتُ أمام باب مكتبه، تأمّلتُ الباب للحظة، ثم حسمتُ أمري، رسمتُ ابتسامةً خفيفة على شفتيّ، وطرقتُه برفق.

جاءني صوته مكتومًا من خلف الباب: «تعالى يا سعيد .. ادخُل».

دخلتُ، ووجدتُه يجلِس خلف مكتبه كالعادة، وَضَع هاتِفه على المكتب، ولمحتُ مُحرّك البحث جوجل قبل أن يقلِبه ووجهه للأسفل، ليُخفي ما يفعله عني، تُرى عمّ كان يبحث؟

نظرتُ إليه، وقُلت، مُحافظًا على ابتسامتي: «بسم الله ما شاء الله، باين أوي إن حضرتك أحسَن».

أشار لي بيدِه، رافضًا مُجاملتي البائِسة: «اخلَص .. وصلت لإيه معاه؟»

شرحتُ له ما حدث، وأخبرتُه أنه يتوهّم سرقة بعض المال منه هذه المرّة، لكِنني أعتقِد أنه سيجِد مالَه مثلما يجِد ما شرِقَ منه في كُل مرّة، وأنني أرى أننا لا يجِب أن نلتفِت لهرائه.

ثم اختتمتُ حديثي بسؤال: «أعمل إيه معاه بقى؟»

أجابني بعدم اهتمام: «بُص .. هو المرّة دي مكبّر الموضوع شوية، ودا فضا .. هو عنده وقت فراغ مش عارِف يعمِل فيه إيه، فبيشغلها معانا .. وإنت كمان بقى .. اشغِلها معاه يا سعيد».

سألته بفضول ممزوج بعدم الفهم: «يعني أتصرّف إزاي يا فندِم؟»

أجابني بنفاد صبر: «يعني مثّل عليه يا سعيد، اعمل نفسك فاتِح

تحقيق رسمي، وحقّق مع الناس، وكُل شوية إديه شوية معلومات أو كلام تحسّسه إنك شغّال وإن موضوعه مُهِم أوي للدرجة دي، عيش الدور معاه يا سعيد».

سألته بدهشة: «أعيش الدور معاه؟»

فأجابني بحزم: «عيش الدور معاه».

«بس حضرتك إحنا عندنا حاجات أهم!»

رفع حاجبَيه، كعادته كُلما شعر بالدهشة، وأمال رأسه جانبًا بعض الشيء، وسألني: «حاجات أهم زي إيه؟»

سألته بدهشة: «الجثّة؟»

أجابني: «جُثّة إيه؟ مفيش جُثّة خلاص يا سعيد! ما انت شُفت بعينك!»

«يعنى إيه؟»

«يعني يا إحنا بيتهيألنا .. يا البحر بلعها .. وإحنا اتفقنا إني مش مُستعِد أخسَر فلوس وسيزون كامِل عشان حاجة من الاتنين!»

بلعتْ ريقي، بحثتُ على أي شيءٍ لأقوله، لكِنه كان نقاشًا خاسرًا، ومن الحُمق خوض أي نقاشٍ خاسِر، لذا حسمتُ أمري، وبلعتُ ريقي مرّة أخرى .. دون أن أجرؤ على مُعارضته.

كما حسم هو أمره وسألني، مُنهيًا نقاشًا لقيَ حتفَه قبل أن يُولَد: «ها .. هنعمل إيه دلوقتي؟»

أجبته فورًا: «اللي حضرتك تؤمر بيه».

فكّر قليلًا قبل أن يقول: «طيّب بما إن الموضوع الأولاني خلص، والموضوع التاني مش مُهِم كفاية، عايزك تروح تلفّ لفّة في القرية، تتطمّن على الناس الموجودة كُلها، وتشوف لو محتاجين حاجة .. أو عايزين حاجة. ولو فيه حاجة مُهِمّة تعالى قولّي». ثُم صمت لحظة وقال: «هو فيه كام شاليه ساكِن دلوقتي أصلًا يا سعيد؟»

أجبته فورًا: «خمسة يا فندِم».

قال: «بُص بقى .. بصنعة لطافة كدا، خبّط عليهم، اتطمّن عليهم، وشوف لو حدّ فيهم ناقصُه حاجة أو فيه حاجة غريبة لفتِت نظرَك .. وتابعني أول بأول».

«حاضر يا فندِم .. أي أوامِر تانية؟»

نهض عن مقعده، مُستنِدًا بيدِه على المكتب، واقترب مني وهو ينظُر في عيني، ويقول: «آه .. آخِر مرّة أسمعك بتفتّح الموضوع دا». صمت لحظة، ثُم اقترب مني أكتر، وقال: «لأ .. آخِر مرّة تفكّر فيه حتى».

بلعتُ ريقي مُجددًا وأجبتُه: «موضوع إيه يا فندِم؟»

ابتسم وقال: «برافو عليك .. أنا برضه قُلت كدا».

جلس مكانه، ثُم قال: «يلّا يا سعيد، روح نفّذ اللي طلبته منّك، إنت كدا كدا زُحت لحسام كامِل، فاضل لك أربع شاليهات، وخلّص وتعالى اديني تمام بكُل حاجة».

أجبته: «تمام».

وخرجتُ من مكتبه بعد أن خطّطتُ رحلتي بين الشاليهات، فأحدهم سأتركه للنهاية!

أعتقِد أنني سأجِد ضالّتي عنده!

(٥)

هُناك أناس نُقابِلهم فنُحبّهُم من أول نظرة، رغم إيماني التام بعدم وجود شيءٍ يُدعى الحُب من أول نظرة، فالقلوب والأرواح مُتآلِفة من قبل النظرات الأولى حتى. وهُناك أشخاص نُقابِلهم فنكره التعامُل معهم بعد أول تحيّةٍ أو سلام، دون سبب مُقنِع أو واضِح.

وبين هؤلاء وهؤلاء هُناك من تنقبِض قلوبنا لمُجرّد رؤيتِهم، ويُسيطِر على أرواحنا ضباب أسود قاتِم، يعتصِر النفس بقبضةٍ قاسية، فتعفّ عنهم النفس وتأبى التصالُح معهم.

هكذا شعرتُ كُلما اقتربتُ من شاليه ذلِك الرجُل العجوز الغريب الأطوار، يدعونه باسم خليل حاتِم، لكِنني أدعوه بغريب الأطوار أو خليل الشيطان. ينكمِش قلبي كُلما نظرتُ في عينَيه، ورأيتُ النظرة القاسية التي تسكُن مقلتَيه، أو حركاته الغريبة المُتخشّبة، قليل الكلام هو .. لكِنه كثير الحركة. نحيل القامة كعود ثِقاب، عصبي كشخصٍ لم ينم منذ أيام، وأشعث الشعر كمن لم يمتلِك مشطًا قط. متوتِّر كقاتِل هارب، وواثِق من نفسه كمُحقِّق على وشك القبض على القاتِل الهارِب.

فتح بابه بعد الطّرقة الثالِثة، تأمّلني للحظة، ثُم نظر خلفي وكأنه يتوقّع رؤية شخصٍ آخر، وسألني بصوتٍ خافت: «أفندِم؟»

حاولتُ الابتسام كعادتي، لكِن شفتيّ انكمشتا في تشنُّج عصبي وأنا أجيبه: «أخبار سعادتك إيه؟»

تجاهلني ووقف على أطراف أصابعه للحظة، وهو يتطلّع إلى

القرية من خلفي، قبل أن يسألني: «فيه حاجة ولا إيه؟»

يعيش بمُفرده، ولا يستقبِل أي ضيوف، صيفًا أو شتاءً. لذلِك كُنت أعرِف أنه لا ينتظِر أحدًا، سوى عُمّال توصيل الطلبات للمنازِل، الذين يأتونه بكُل ما يطلُب. أعرِف كذلِك أنه يشتري كُل شيءٍ بشرط أن يكون مُحكَم الإغلاق والتغليف، وأنه لا يأكُل أو يشرَب إلا ما يفتحه أو يطبخه بيدَيه فقط.

قال لي مُدير القرية، المستر خالِد، يومًا إنها أعراض مرَض نفسي، مكوّن من ثلاثة أو أربعة حروف إنجليزيّة، لكِنني لا أتذكّرها بالضبط الآن.

أجبته: «ولا أي حاجة، حضرتك جيت في بالي، قُلت أتطمّن عليك».

تأمّلني بلحظة، قبل أن يقول: «فيك الخير، أنا تمام».

كاد يُغلِق الباب في وجهي، لكِنني بادرته بالقول: «مش محتاج أي حاجة أجيبها أو أعملها عشانك يا فندم؟»

نظر لي للحظة، قبل أن يقول: «لأ، ولا أي حاجة. ولو فيه حاجة بعد كدا يا ريت تتصل، مبحبّش حدّ يجيلي من غير ميعاد».

ابتسمتُ رغمًا عني، وقُلت: «أوامِر يا فندم، بالمُناسبة لو حبّيت تنضّف الشاليه، فيه حدّ مُحترَم وأمين بيعمِل دا، حضرتك تؤمر بس».

قال وهو يُغلِق الباب: «بعمِل حاجتي بنفسي».

وتركني أقِف أمام الباب أُصارِع عدّة مشاعِر، ما بين الغضب،

والفضول، وعدم الرضا، وعدم الفهم.

تحرّكتُ مُنتقِلًا إلى الشاليه التالي، والذي يبعُد عن شاليه خليل الشيطان حوالي ثلاثة شاليهات. على أي حال، القرية ليسَت ضخمة لهذه الدرجة، بل هي صغيرة وتمتاز بكثيرٍ من الخصوصيّة، يُشاع إنها ملك لأحفاد سياسي مُخضرَم، ويُقال كذلِك إنها ملك لأبناء صحفي من رجال النظام السابِق، لكِن ما بين هذا وذاك .. تتوه الحقيقة. تتكوّن القرية من سبعة عشر شاليهًا، خمسة ترى البحر مُباشرة، أو «أول مُطِل» كما يُطلِقون عليها، وخمسة أخرى في الصفّ الثاني، ثُم سبعة في الصف الثالِث.

وصلت للشاليه الثاني، الذي تسكُنه السيّدة شاهيناز، العجوز المُقعدة التي يُرسِلها أبناؤها إلى هُنا طوال الشِتاء لتعيش مع المُمرِّضة الخاصّة بها، وفي الصيف يُعيدونها إلى الإسكندرية، ويأتون للإقامة هُنا طوال شهور الصيف، في مُعادلةٍ لم أفهمها قط، لكِن كما يقول المستر خالِد: *من حكَم في ماله فما ظلم!*

طرقتُ الباب، ووقفتُ مُنتظرًا، حتى فتحت لي الباب، ابتسمَت وقالَت: «مساء الخير».

تأمّلتها للحظة، وأنا أبحث عن الكلمة المُناسِبة، ماذا يُفترَض بي أن أجيبها؟

فتاة شابة، تتمتّع بجمالٍ هادئ، وجسدٍ ممشوق، شعر طويل مفرود، بلونٍ بُني لامِع، وابتسامة ساحرة، ترتدي ملابِس مُتناسِقة، وتنظُر لي برقةٍ لم أرَ لها مثيلًا من قبل.

وجدتُها. أجبتُها: «كُل سنة وإنتِ طيبة».

انعقد حاجباها المرسومان، وهي تضحك قائِلة: «وإنت طيب.. مين حضرتك؟»

أدركتُ حينها أنني أجبتُ إجابةً لا عَلاقة لها بما قالته، فحاولتُ التماشك وقُلت: «أقصد مساء النور، أنا اسمي ...».

ضحكت وقالت: «نسيت اسمك ولا إيه؟»

تمالكتُ نفسي وقُلت: «حد بينسى اسمه برضه؟ لا أنا سعيد .. من أمن القرية».

مدّت يدَها وقالت: «وأنا مريم .. مُمرِّضة المدام».

صافحتُها وأنا أقول: «إزيّك .. كُله تمام؟»

شعرتُ بنعومة يدِها أثناء المُصافحة، رغم أنها لم تذم سوى للحظة، قبل أن تبتسِم قائِلة: «كُله حلو، خير يا سعيد؟»

أجبتها: «كُله خير، جيت أتطمّن على حضراتكم بس، لو محتاجين حاجة أو كدا؟»

«تسلم يا سعيد، لأ هي المدام مُقعّدة وبكماء زي ما انت عارِف، فمش بتحتاج حاجات كتير، وأنا طلباتي كُلها بجيبها من أبلكيشَن «اطلُب» من على الموبايل زي ما انت عارِف».

قالتها وهي تُشير لي بهاتِفها الآيفون، ضحكتُ وقُلت: «هو يعني إيه بكماء دي؟ هي مش مصرية؟»

قهقهت في مرح قبل أن تُجيبني: «بكماء يعني خرسة .. مش

بتتكلّم». ثُم أضافت: «دمك خفيف يا سعيد».

شعرتُ بالحرَج، لكِن حمدًا لله أنها اعتقدَت أنني أمزَح، وأن دمي خفيف يا سعيد، قهقهتُ بدوري قليلًا، ثُم قُلت: «عمومًا لو احتجتي أي حاجة ... ». صمتُّ للحظة قبل أن أقول: «حضرتك أو المدام، هتلاقيني في مكتب الأمن».

ابتسمت وقالَت: «اتفقنا، تسلملي يا سعيد».

أجبتُها: «العفو يا مِس مريم».

بدت مُندهِشة للحظة، قبل أن تُغلِق الباب دون أن تتخلّى عن ابتسامتها الساحِرة.

يبدو أنني كدتُ أُفسِد الأمور عندما ناديتُها بـ «مِس مريم»، إذ يبدو أن الطبقة الهاي كلاس لا يُنادون المُمرّضات بلقَب «مِس» مثلنا، حسنًا .. سأنتبِه بعد ذلِك

والآن .. إلى وجهتي الأخيرة، ومِسك الخِتام.

انقطع النور في القرية بأكملها، زفرتُ في ضيق، هذا ما ينقُصنا، تخفيف الأحمال الذي بدأ مُبكّرًا، قبل حتى أن يبدأ الصيف!

اتجهتُ إلى آخر شاليه في شاليهات «الفُطِل الأول»، الذي يرى الشاطئ بوضوح، رغم ابتعاده عن بقية القرية. أشعُر أحيانًا أن شاليهه يُشبِهه، غامض ورائِق المزاج، هادئ ووحيد. أراه يجلِس في حديقته طوال الوقت، يُدخّن سيجاره البُني الضخم، ويتحدّث عبر الهاتِف كثيرًا سواء في مُكالمات هاتفية أو مُكالمات فيديو، ويعمَل على حاسوبه المحمول طوال الوقت. لا أعرِف ماذا يعمَل، لكِنه وبكُل

تأكيد – نظرًا لوضعَيه الاجتماعي والاقتصادي – في منصبٍ مُهِم، أو يعمل في وظيفةٍ سريّةٍ لهذا ينعزِل هُنا لفترات طويلة من السنة.

لم أجِده في حديقة شاليهه، لكِنني كُنت أعرِف أنه بالداخِل، رُبما هو نائِم أو شيء من هذا القبيل، نظرًا لأننا في الساعات الأولى من صباح اليوم، قطعتُ الخطوات التي تفصلني عنه وأنا أُفكِّر فيما سأُخبره به، وأُرتِّب أفكاري، وطريقة سير حديثي معه، فشخص بهذه الأهميّة وقته ضيّق ومحدود، وبالتأكيد لن يُضيّعه في الحديث مع رجُل أمن مثلي!

وقفتُ أمام بابه، وأخذتُ نفسًا عميقًا، وقبل أن أطرُقه .. فُتِح أمامي فجأة!

(٦)

فُتِحَ الباب لأجده يقِف أمامي، شابٌ نحيل، متوسّط الغُمر، بلحية مُنمّقة وشعر انحسرَت أطرافه فتركت بدايات صلع وراثي في رأسه، يُمسِك في يُمناه كوب قهوة كبيرًا، وفي يُسراه طبقًا به شطيرة، ويتأبّط حاسوبه المحمول.

نظر لي لوهلةٍ قبل أن يقول: «سعيد .. صح؟»

ابتسمتُ وأجبته: «صح، إزيّك يا فندِم».

قال مُبتسمًا: «لأ فندِم إيه، خلّي البَساط أحمدي كدا عشان أحبّك، قولي يا كريم عادي».

تجاوزني وسار نحو الحديقة، فلم أجِد بُدًّا من مُتابعته، لكِنه قال دون أن ينظُر خلفه: «رُد الباب بإيدك يا سِعدة من فضلك».

واربتُ الباب وأسرعتُ خلفه، وَضَع طبق الطعام على منضدة صغيرة، والكوب بجوارها، دون أن يُفلِت الحاسوب من تحت إبطه، أسرعتُ لأُمسِكه وأنا أقول: «عنّك يا فندِم».

نظر لي مُعاتبًا وقال: «ها .. قُلنا إيه؟»

أجبتُه بحرَج وأنا أضع الحاسوب على المنضدة: «لا مؤاخذة يا كريم بيه، شوية وهتعوَّد».

ابتسم وقال: «معرفش إنّك جاي بقى فمعملتِش حسابك في القهوة، بس التلاجة فيها حاجة ساقعة، لو تحِب .. ادخُل خُد اللي نفسك فيه».

أجبته: «شكرًا والله، سبقت حضرتك».

جلس وأمسَك شطيرته، فقضم منها قضمةً لا بأس بها، ومضغها بتروٍّ قبل أن يسألني: «ها .. منوّرني ليه بقى يا سِعدة؟»

ورغم أنني لا أُحِب تدليل سِعدة بدلًا من سعيد، لكِن الرجُل يُعاملني باحترامٍ جم، ويتعامَل معي بشكلٍ جيِّد، لذلِك لا بأس بتحمُّله، فكما اعتادَت جدّتي أن تقول: *عدوّك يتمنى لك الغلط، وحبيبك يبلع لك الزلط!* ولا مانِع لديّ من بلع بعض الزلط من أجله.

أجبته: «والله يا فندِ .. قصدي، والله يا كريم بيه قُلت أعدّي على سيادتك أتطمّن عليك، وأشوف لو ناقصك حاجة، ولا محتاج حاجة كدا ولا كدا يعني».

قال: «فيك الخير والله، إنت هتفضّل واقِف؟ ما تقعُد».

أجبته بحرج: «ميصحّش .. ».

رنّ هاتِفه قبل أن أستكمِل إجابتي، أخرجه من جيب الروب الصوف الذي يرتديه، ونظر فيه للحظة، قبل أن يُجيب المُكالمة، وعَرَفتُ أنها مُكالمة فيديو لأنه وضع الهاتِف أمام وجهه قبل أن يقول بحماس: «يا لارا .. إزيّك».

أجابته: «هاى يا حبيبى .. عامِل إيه؟»

«أنا حلو .. إنتِ حلوة؟»

«أنا حلوة طول ما انتِ حلو والله، طمّني مش جاي Cairo قُريّب؟ عايزة أشوفك موت!»

«عندي ميتينج في Smart village قُريّب، هقولك قبلَها يا لولي، وحشتيني والله».

«وإنت وحشتني موت، لسّه بتروح الأرياف برضه».

«بقى Smart village أرياف برضه يا ضايعة».

ضحكت، أبعد عينَيه عن هاتِفه وقال لي بنفاد صبر ودود: «ما تُقعد يا ابني».

سألته لارا: «عندك ضيوف ولا إيه؟»

حرّك شاشة هاتِفه نحوي وقال: «دا سعيد، أمن القرية، وصاحبي الجديد، قول هاي يا سعيد».

ابتسمتُ بحرج للجميلة التي ظهرَت على شاشة الهاتِف وقُلت: «هاي».

أجابتني: «لذيذ موت!» ثم قالت لكريم: «كراميلة .. لمّا تيجي كلمني!»

«Sure babe».

«باي يا كراميلة».

«باي يا ضايعة».

أنهى مُكالمته وقال: «ضايعة والله».

سألته: «خطيبة حضرتك؟»

أجابني: «لحد دلوقتي .. Just a Friend». ثم أضاف بالعربيّة:

«بس دعواتك بقى».

فتح شاشة الحاسوب، وكتب رقمَه السري، قبل أن يقضم قضمةً أخرى من شطيرته، ويمضغها ببطء، ويسألني: «كُنا بنقول إيه؟»

أشرتُ إلى قهوته وقُلت: «طيب تحب حضرتك تشرَب قهوتك الأول قبل ما تبرَد؟»

نظر إليها وقال مُبتسمًا: «مبتحمِّلش الحاجة السُخنة، لازِم أسيبها تبرد الأول شوية».

قُلت: «لمّا حضرتك تفطَر عايز أسألك على حاجة».

اعتدل في جلسته، ونظر إليّ قائِلًا: «خير؟ قولّي».

«هو أنا محتاج مُساعدة صُغيّرة من حضرتك، دا لإن حضرتك دايمًا على النّت وبتفتح الأكوِنت بتاعك كتير، وكمان عشان شُغل حضرتك .. أعتقِد هتقدَر تساعدني».

«أنا عينيّا ليك أكيد، بس أنا معنديش أكونتات خالِص، دي كُلها أكوِنتات الشُغل والشركة مش أكتر».

سألته بحرج: «لو مفيهاش إساءة أدب، هو حضرتك بتشتغل إيه؟»

«بُص يا سيدي، أنا عندي شركة لخدمات الموتى، اسمها «مثوى»».

قاطعته بدهشة: «خدمات الموتى؟ وهو الميِّت بعد الموت هيحتاج خدمات؟»

قال لي: «اصبُر عليّا، بعد الشر يعني، لمّا الميِّت بيموت .. أهله حياتهم بثقف، إنت مُتخيِّل وسط الحُزن دا بقى فيه روتين وطلبات،

وهات البطاقة، وخُد الكفن، ومكتب الصحّة، وشهادة الوفاة، وعربيات الدفن، والراجِل بتاع التُرب، وافتح القبر، ودخّل الميّت .. الموقِف بيبقى صعب على الناس أوي».

أجبته: «بس دا أمر الله، وسُنّة الحياة».

قال: «ونِعمَ بالله، محدّش قال حاجة، بس انت مُتخيّل إن فيه حدّ هيسيب حُزنه على والده ويقعد ينظّم كُل داه؟ دا شيء صعب جدًّا».

«حضرتك حانوتي؟ أو حدّ في عيلتك كان حانوتي يعني؟»

ضحك قائِلًا: «لأ، خالِص!»

سألته: «ولا تُرَبي؟»

«لأ، أنا بس حبّيت أقدّم خدمة جديدة بتحترِم حُزن أهل الميّت، إنما أنا أصلًا مُهندِس، لحد ما في يوم كُنت برة مصر وحضرت جنازة مع ناس زمايلي، وشُفت الناس برة عندها هدوء وبتحترِم الموت إزاي، فقُلت إحنا ليه معندناش حاجة زي كدا؟ لحدّ ما رجعت مصر».

أجبته بمزاح: «ولقيت الوضع سيئ».

قال بجديّة: «سيئ دي كلمة قُليلة، ساعتها قرّرت أبدأ أتصرّف وأصلّح القصّة دي، والحمد لله إني لقيت ناس مؤمِنة بالفكرة بتاعتي، ساعتها قعدت مع نفسي وعملت **Research** كبير عن أنا محتاج إيه، وناقصني إيه، والسوق عايز إيه، وبدأت».

سألته بفضول: «يعني حضرتك إيه الخدمات اللي بتقدّمها؟ يعني لو عندي حالة وفاة .. حضرتك هتقدملي إيه؟»

«الهدف الأساسي هو تكريم الميّت، وإني أدّي المساحة للعيلة إنها تدي الحُزن نفسه مساحته، عشان كدا بنتولّى إحنا الموضوع من أول حالة الوفاة ما تحصَل، ومش لوحدي .. أنا معايا Team كبير، ومقسّمين الـ Process ما بينا، أول حاجة إن الفريق كُله بيتحرّك وحدة واحدة، بس فيه شخص مُعيّن ومتدرّب كويّس أوي إزاي يتعامِل مع الناس في حالة الحُزن، هياخُد منك كُل المعلومات، ويدّيها لنا عشان نشتغل وننفّذ كُل حاجة».

«كُل حاجة كُل حاجة؟»

«كُل حاجة .. من أول التصريح، والغُسل، وعربيّة نقل الموتى، وفتح الثُرب، وحجز قاعة العزا، وتجهيز الصدقة الجارية، وكِتابة النعي ونشره، وبعد الوفاة حتى مش بنسيب أهل الميّت .. بالعكس بنتابع معاهم لو عايزين يعملوا أربعين، أو حتى سنوية، دا غير الأوراق اللي بنبقى مسئولين عنها مية في المية».

«واشمعنى مثوى يا كريم بيه؟»

«عشان لمّا حد بيموت بتدعي له: ربنا يجعل مثواه الجنّة، لإن كلمة مثوى جاية من كلمة الثواء، ودي كلمة معناها الإقامة، ودا مقصود بيه المكان أو المُستقر بتاع الميّت في الجنّة إن شاء الله».

«وحضرتك بتجيب زباينك منين؟ الناس بتكلّمك يعنى لمّا حد بيموت عندها أو كدا؟»

ضحك قائِلًا: «بجيب زباينى من على النّت يا سعيد، دا اللي بقعد أعمِله زي ما إنت شايِف كدا، ولأ .. أحيانًا حدّ بيكلمني ويتّفق معايا

إنه هو لمّا يموت، هبقى مسئول أنا عن كُل حاجة، كمُحاولة يعني لتخفيف الضغط عن أهله من بعده».

«على كدا بقى الموضوع دا بيتكلّف كتير؟»

«والله يا سعيد الموضوع درجات، يعني كُل حاجة بتتكلّف حاجة، والأسعار بين المعقولة والعالية، كُل واحِد حسب قُدرته».

«أقولّك حاجة من غير زعل يا كريم بيه؟»

ضحك وقال: «قول يا سعيد».

«دي أغرب حاجة سمعتها في حياتي، حضرتك .. ومتزعلش مني يعني، حانوتي مودرن».

قهقه قائِلًا: «آه، بالظبط .. حاجة زي كدا فعلًا».

لكِن قبل أن أنطِق بكلمة أخرى، أو يستكمِل كريم حديثه، سَمِعنا رجلًا يصرُخ في غضبٍ عارم.

(٧)

ركضتُ إلى صوت الصراخ، ورأيتُ أول ما رأيتُ صينية ستانلِس مقلوبة أرضًا، تناثرَت كُل محتوياتها أرضًا. رفعتُ ناظريّ ورأيتُ حُسام كامِل، يُمسِك بتلابيب قميص حسَن بائِع الجندوفلي، ويكاد يرفعه عن الأرض في غيظ وهو يصرُخ: «والله ما هسيبَك يا حرامي».

وحسن يُحاوِل الدِفاع عن نفسه دون أن يلمِس المُمثِّل الشهير قائِلًا: «أنا عملت لحضرتك إيه بس؟» ثُم انتبه لحضوري، فنظر لي وقال: «والله العظيم ما عملت حاجة يا سعيدا»

يُقال إنه إن زُفِعَت الأيادي .. تساوَت الرءوس! لكِن يبدو أن روّاد الساحِل الشمالي لم يسمَعوا بهذه المقولة، لأن أحدًا لا يجرؤ على رفع يدِه على أحد شكّان هذه الشاليهات أو مُرتادي هذه الشواطئ.

صرخ حُسام وهو يزُجّ حسن بين يدَيه بقوّة: «إنت حرامي .. وأنا مش هسيبَك، وبعدين بتستنجِد بمين؟» نظر لي بشخرية قبل أن يُضيف: «البيه اللي نايِم على ودانه وسايبني أعمِل شُغله مكانه!»

أعتقِد أنني هذا البيه المقصود!

هرعتُ لأُنقِذ حسن النحيل الذى يُعانى من علامات سوء التغذيَة من بين يدي حُسام الذي يُعاني هو الآخر من سوء التربية! وقف الفتى خلفي وهو يرتعِد، مُحاولًا الدّفاع عن نفسه بحرقة المظلوم: «والله ما سرقت منه حاجة!»

نظرتُ إليه لوهلة، وهو يقِف خلفي، حسن .. الشاب المُهذّب

النحيل، من مواليد الحمّام في مطروح، والذي يعمَل هو وأسرته هُنا في القرية، وبعض القُرى المُجاوِرة، لديهم مشروع عائِلي صغير، حيث تُجهِّز والِدتهم أطباق الجندوفلي والجمبري والبساريا، ليطوف بها حسن الشواطئ ليبيع الطبق بمائتي جنيه فقط لا غير، وهو سعر مُدهِش للسادة زوّار تلك القُرى.

مدّ حُسام يدَه خلفي، وأمسَك بملابِس حسن، وجذبه إليه وهو يقول: «والله ما هسيبك». ثُم نظر إليّ، وصاح: «اتّصل بالشُرطة».

حاولتُ الدّفاع عن حسن، فسألته بهدوء: «طيّب بس مُمكِن حضرتك تهدا شوية، وتقولّي هو سرق منّك إيه؟»

نظر إليّ بغضب وقال: «هو اللي هنعيده هنزيده؟ شُفت بقى إنك مش شايف شُغلك، ما أنا قايلّك إن اللي اتسرق مني فلوس». ثُم أمسَك بتلابيب حسن ثانيةً وقال: «والحرامي ده هو اللي سرقني».

سألته بهدوء: «طيّب حضرتك بس مُمكِن تحكيلى إيه اللى حصَل؟»

نظر لي للحظة، ثُم قال، دون أن يتخلّى عن عصبيته: «طبعًا البيه عدّى عليا كالعادة، واشتريت شوية حاجات وحاسبته، ولمّا طلّع الفلوس عشان يدّيني باقي .. لقيت في جيبه زِزمة فلوس كبيرة».

حاول مدّ يدِه في جيب حسن، الذي قاومه باستماتة، رغم ضعفه وخوفه وقلّة حيلته، لكِن غضب حُسام كان أقوى من أن يُقاوَم، أخرَج زِزمة نقود كبيرة من جيب حسن، تناثرت بعض أوراقها أرضًا، رفع يدَه بالنقود في الهواء، في حركةٍ استعراضيّةٍ لا تتناسَب مع

الموقِف وقال: «قولّي إنت بقى .. عيّل زي دا .. يجيب الفلوس دي كلّها منين؟»

وإحقاقًا للحق، إنها وجهة نظر جيّدة. فحسن، وصينيته، وعمله بالكامِل لا يُمكِن أن يأتي بمثل هذه النقود. أمسكتُ النقود من يدِ حُسام، الذي قاوَمَني للحظةٍ قبل أن يحسِم أمره ويتزكها لي.

أخذتُ حسن من يدِه، ونظرتُ لحُسام قائِلًا: «أنا هاخده معايا مكتب الأمن، وهتصرّف، وأوعِدك أول ما أعرَف مصدَر الفلوس دي، لو مسروقة من حضرتك .. هجيب لك فلوسك».

نظر لي بوعيدٍ قبل أن يقول: «أتمنى تشوف شُغلَك كويّس المرّة دي يا بيه».

ابتسمتُ له، وابتلعتُ ردودًا كثيرة دارَت في ذهني، أخفُّها حدّةً، قادِر على رفدي من عملي، وأثقلها، قادِر على سجني لمُدّة عشر سنوات على الأقل.

قال حسن مُدافِعًا عن نفسه: «والله ما سرقت منه حاجة».

همستُ له: «امشي معايا من شكات».

انصاع لي الفتى بعد شعوره بالأمان تجاهي، سرتُ معه مُبتعدًا بعد أن لملم أطباقه التي أفسدها الثُراب، ورصّها فوق صينيته كيفما اتفق، وجمع الأوراق النقدية التي سقطت حولنا، وسار بجواري نحو مكتب الأمن.

وصلنا، وفتحت المكتب بمفتاحي، دخل حسن ووضع صينيته على المكتب، وقال بغضب: «ما هُمّا مش حاشّين بينا، هو عارِف بوّظ

بضاعة بكام، طيب عارِف أنا هشتغل أدّ إيه عشان أعوّض الخسارة دي؟»

سألته بهدوء: «جِبت الفلوس دي كُلها منين يا حسن؟»

أجابني مُتمتمًا: «حسبي الله ونعم الوكيل فيه».

كرّرت سؤالي: «جِبت الفلوس دي منين يا حسن؟»

نظر لي بدهشة، قبل أن يقول: «فلوسي يا سعيد».

سألته بشخرية: «فلوسك منين؟ ورثت خالك بتاع البرازيل؟ ولا أسهُمَك في البورصة كسبِت؟» ضربتُ المكتَب بيدي بقوّة، فجفل، قبل أن أقول: «إخلص يا حسن عشان أعرَف أساعدك .. أنا لو سِبتك للراجِل دا هياكلك بسنانه!»

تردّد للحظة، إذ لم يتوقّع ثورتي، ثم نكّس رأسه خجلًا، وقال: «لقيتها على الشط».

سألته بلَوم: «ومِن إمتى بناخُد الحاجة اللي بنلاقيها؟ مش المفروض تدّيهالي؟ وأنا بتصرّف!»

أجابني ببعض الخجل، مُحاولًا تبرير موقِفه: «وهو إنت غريب يا سعيد، ما انت عارِف البير وغطاه. اللي جاي على أدّ اللي رايِح، واللي يحتاجه البيت يحرَم على الجامِع».

سألته بغضب: «إنت هتقولّي كُل الأمثال الشعبيّة اللي حافظها؟ ما تخلَص وتيجي سكّة!»

عضّ شفته العُليا للحظة، ثم قال: «السيزون واقِع يا سعيد، وانت

عارِف الظروف، وعارِف كويِّس إننا مش بنشتغل طول الشِّتا غير بملاليم، أنا قُلت هخليها معايا .. ولو حدّ سأل عليها أهي في الحفظ والصون».

نظرتُ له بغضب وسألته: «واللي هيضيع منه حاجة .. هيسألك إنت عليها؟»

قال بخجل: «أهو اللي حصَل بقي». أخرَج محفظةً من الجلد الأسود من جيبه، وأعطاها لي.

قلّبتها بين يدى، يبدو أنها من ماركة عالميّة، لكِننى لا أُميِّزها جيِّدًا، لكِنها مُزدانة بلوجو من تلك اللوجوهات التي يتباهى بها هؤلاء البهوات. نظرتُ إليه وقُلت: «متطلعش منّك دي يا حسن».

قال بخنوع: «مُمكِن بس متقولش لأحمد لو سمحت؟»

وأحمد هو شقيقه الأكبر، الذي يبيع المانجو طوال الصيف، إذ يشتري الكيلو بخمسين جُنيها، ثُم يدُس عصا في مؤخِّرتها، ويُقشِّرها، ويُقطِّعها على شكل وردة، ثُم يبيع الواحِدة بمائة جنيه!

أعطاني النقود وقال: «عدّها .. والله ما اتصرف منها جنيه!»

سألته بلومٍ يشوبه بعض الشك: «وخرّجتها من المحفظة ليه يا حسن بقى؟»

ارتبك قليلًا قبل أن يقول: «أنا خدت الفلوس منها بس عشان متتسرقش مش أكتر». ثُم حاول الدِفاع عن نفسه قائِلًا: «الفلوس كاملة والله، حتى لو مش مصدّقني .. عدّها!»

أجبته بشخرية: «وأنا أعرَف عددهم منين بس يا حسن؟ هي محفظتي!»

نظر للنقود للحظة، ثم إليّ مُتسائِلًا: «هتعمل بيها إيه؟»

أجبته بشخرية: «هخليها معايا .. ولو حدّ سأل عليها أهي في الحفظ والصون».

ابتسم لي ابتسامةً مُقتضبة، وقال وهو يحمِل صينيته خارجًا من المكتب: «ابعد الراجِل المجنون دا عني .. أنا مسرقتش منه حاجة والله».

هززتُ له رأسي بمعنى: *اللي فيه الخير يعمِله ربنا*!

أخذتُ نفسًا عميقًا، وأمسكتُ بالمحفظة، أفكّر في الخطوة التالية، هل يجِب أن أذهب بها للمستر؟ أم أبدأ البحث عن صاحبها بنفسي؟ أم ...

فتحتُها دون وعي، وأمام عيني .. وجدتُ إجابة جميع أسئِلتي!

التي طُرِحت .. والتي لم تُطرَح!

(٨)

ولأنني صدقتُ العزم .. وجدتُ السبيل!

أمام عيني كانَت، مُنقِذتي ومُلهِمتي، تنتظِرني لألمِسها. بطاقة شخصية تختبئ داخِل أحد جيوب المحفظة الجلديّة، أخرجتُها بأطراف أصابعي، ومسحتُ التُراب الذي تسلّل إليها برفقٍ، وتأمّلت صورة صاحبها لوهلة.

حسنًا، لو تجاهلنا التورُّم الذي ساد الوجه، والكدمات التي تناثرَت في أرجائه، والجروح التي نالَت منه، واللون الأزرق الشاحِب الذي مسّه، والشفة السُفليّة المجروحة، والعين المفقوعة، والشعر الأشعث .. لميّزته على الفور.

كان وسيمًا .. في الصورة، لا على ضهر الحوت!

قرأتُ اسمه بصوتٍ هامِس: حازِم رشاد أبو الوفا.

تحرّكَت عيني على بقية الخانات، ثُم أدرتُها بين أصابعي، ورأيتُ المهنة: طبيب نفسي.

حسنًا، لقد عرَفتُ اسمك يا سيّد حازِم رشاد، أم يجِب أن أقول يا دكتور حازِم رشاد، لقد كشفتُك بطاقتك الشخصيّة يا أُستاذ!

والآن، ما هي الخطوة التالية بعد أن عرَفتُ الاسم؟ هل يجِب أن أُبلّغ الشُرطة؟ لكِنني لا أملك دليلًا على أنه ميّت! فالجُثة اختفت .. وربما ابتلعها البحر! أو ربما أخفاها القاتِل .. الذي لا يزال بين جدران قريتنا! والذي سيعرِف، بلا أدنى شك، أنني أعرِف سرّه! وربما يسعى

للتخلُّص مني لإسكاتي! أم أُخبِر شخصًا أثِق به؟

حسنًا، تبدو هذه فكرة معقولة، لكِن بمَن أثِق هُنا؟ حُسام كامِل .. الشكّاك الذي يَتهِمني بأنني كسول بليد؟ أم مِس مريم.. المُمرِّضة التي لا يجِب أن أُناديها بمِس مريم مرّة أخرى؟ أم خليل الشيطان .. غريب الأطوار الذي لا ينفكّ يبحث عن أشخاصٍ لا يراهُم سواه؟ أم مستر خالِد .. الذي أشُك أنه أخفى الجُثّة بنفسه إنقاذًا للـ «سيزون» الذي دفع تكاليفه واشترى مولِّد كهرباء من أجل مُقاوَمة خطّة تخفيف الأحمال؟ أم كريم بيه.. الحانوتي المودِرن صاحِب الأفكار المجنونة والفتيات الجميلة؟ والجلوس على الإنترنِت طوال الوقت؟

لحظة، الإنترنِت!

هُناك حلٌّ لكُل مُشكِلة على الإنترنِت، حتى إنهم يقولون إنّك لو قابلت مُشكِلة في عام (٢٠٢٤) ولم تجِد لها حلًّا، فكُل ما عليك فعله هو البحث على الإنترنِت، وستجِد ثلاثة أمريكان يُناقِشون حلّها في أحد المُنتديات أو المواقِع الشهيرة مثل (Reddit) أو (4Chan) أو غيرها، أو هنديًا يشرَح لك كُل ما يتعلّق بمُشكِلتك في فيديو على موقِع اليوتيوب!

إذن لماذا لا يُساعِدني الإنترنِت في حل مُشكِلتي؟

فتحث الفيس بوك، وكتبث اسمه فى خانة البحث باللُّغة العربيّة: «حازِم رشاد».

لكِنني لم أجِد بين الحسابات التي ظهرَت ضالّتي، لا يبدو أحدهم طبيبًا، فهذا أكبر سنًّا من أن يكون طبيبًا نفسيًّا، وهذا أصغر بكثيرٍ من

أن يكون رجُلًا حتى، وهذا .. ماذا يفعل خارِج السجن؟ ناهيك طبعًا عن أنهم جميعًا لا يُشبِهون الرجل!

جزّبتُ كِتابة الاسم باللُّغة الإنجليزية، وأنا أهمس لنفسي: *أما إنتم يا بهوات عليكم حاجات!*

لكِن هل تُكتَب (*Hazem*) أم (*Hazim*)؟

جزّبتُ الأولى، وشرعان ما وجدتُه في انتظاري، فتحت الحِساب ورأيتُ صورته، سيلفي وهو مُبتسِم، يرتدي نظارة شمس، ولا يعرِف أنه سيُفارِق الحياة قريبًا.

كتب في بياناته الشخصيّة أنه طبيب نفسي، لكِنه كتبها باللُّغة الإنجليزيّة، أعتقِد .. لأنني لا أعرِف الكلمة، لكِنني أُخمّن أنها وظيفته، لأنني كتبتُ في نفس الخانة في حسابي «*مُدير أمن قرية ضهر الحوت*» في حسابي على فيس بوك!

بدأتُ أتنقّل بين صورِه، يبدو مُنفتِحًا على الحياة، يُحِب السفر، لأن صورَه تبدو وكأنها في أماكِن مُختلِفة، كما أنه يهتمُّ بملابسه وتناسُق ألوانها، وكذلِك لا يبدو مُهتمًّا للغاية بتبديل صورة حسابه، إذ إنه يُغيّرها مرّة في العام أو ما شابه.

خرجتُ من قائِمة الصور، وبدأتُ أبحث عن قائِمة أصدِقائه، داعيًا الله ألا يكون قد أغلقَها، ويبدو أنه يوم حظّي، لأنها كانَت مفتوحة.

لم يكُن فيها سوى مائة وبضعة من الأصدِقاء، بدأت أفتحهم بشكلٍ عشوائي، بحثًا عن أي معلومة يُمكِن أن تُساعدني، أو خيط يُمكِنني جذبُه كي تنكشِف أمامي المعلومات، وتتعرّى أمامي الحقيقة، وجدتُ

حسابًا لشخصٍ يُدعى «أحمد بهيج» يضع صورة له بالمايوه في حمّام سباحة فُندق!

وهُنا .. انتبهتُ لشيءٍ مُهِم!

رُبما يمتلِك أحدهم شاليهًا في الساحِل، سواء هُنا في قريتنا، أو في أي قريةٍ أخرى مُجاورة!

وهكذا بدأتُ أبحث في قائِمة أصدِقائه واحدًا تلوَ الآخر، بحثًا عن أي صورٍ في الساحِل، أو أي شيء يدُل على وجودهم في أي مكانٍ قريب منه.

لكِن شرعان ما واجهتني مُشكِلة أخرى! الحسابات المُغلَقة أو خاصيّة اللوك كما يُطلِقون عليها، ويُمكِنني تفهُّم إغلاق الفتيات لحساباتهنّ، تجنُّبًا للمُضايقات والتحرُّش، لكِن إغلاق الذكور لحساباتهم شيءٌ لا أفهمه، مِمّ تخشى يا رجُل؟ من تحرُّش النساء؟ يا ألف أهلًا وسهلًا والله!

ولم أجِد حلًا للتغلُّب على هذه المُشكِلة سوى إضافة هذه الحِسابات، علّهم يقبلون إضافتي، وهكذا تُفتَح أمامي أبواب حساباتهم وصورهم على مصراعَيها، علّني أجِد ما يُرضي فضولي ويُجيب أسئِلتي.

وهكذا بحثتُ في الحسابات المفتوحة، وأضفتُ الحسابات المُغلقة، في انتظار أن يقبلوني كصديقٍ لأتمكّن من استكمال رحلة بحثي المحمومة.

انقطعت الكهرباء مرّة أخرى، عجبًا .. يومَين مُتتالِيَين؟ يبدو أنه

سيكون صيفًا مُمتعًا!

كُنتُ على وشك العودة إلى غُرفتي، لكِن قبول أحدِهم لطلب الصداقة قطع رحلتي، عندما وصلني إشعار بأن السيِّدة «ليلي عابدين» قبِلَت طلب صداقتي، ضغطتُ على صورتها داخِل الإشعار، لينقلني هذا مُباشرةً إلى حسابها، واتّضح أن الآنسة ليلى جميلة حقًّا.

بشعرها الأحمر اللامِع، وعينَيها العسليتَين، وبشرتها البيضاء، ووجنتَيها المتوَرِّدتَين. تبتسِم لي في الصورة، وعيناها تلمعان في شوقٍ عارم، نظرتُ إلى حالتها الاجتماعيّة، سنجل، حمدًا لله.

حسنًا، ضغطتُ زرّ إرسال رسالة وكتبتُ لها: «هاي .. مُمكِن نتعرّف؟ أنا سعيد».

وانتظرتُ ردّها، لكِنها لم ترَ الرِّسالة بعد.

أغمَضتُ عينيّ قليلًا، وتخيّلتُ حوارًا دار بيننا، ستُعجِبها خفّة دمي، وسنتبادَل معًا أطراف الحديث، ستُناديني سِعدة، وسأدلّلها برقوقة؛ في إشارة للون شعرها الأحمر الذي أحببتُه، سأصارِحها بحُبّي ولن تُقاوِمني، ستُصارِحني بحُبّها فورًا.

أعرِف أنني سأسألها: هل تقبلِين العيش معي في ظروفي الحالية يا بنت الحلال؟

ولأنها بِنت حلال، ستُوافِق، وستقبل بالعيش معي، سأخطّط لحفل زفاف ضخم، يليق بها، ويحلِف به كُل شكّان منطِقتنا، غالبًا سيكون على سطح بنايتنا، وستُجهِّز ماما وفاء، والِدتي، شطائِر الجِبنة الرومي والبسطرمة للمعازيم، سأُراقِصها على أنغام مهرجان يتباهى

مُؤدِّيه بالانتصار على أخصامه، ويُهدِّدهم بما سيفعله بهم وبكُل ما يُحبُّونه.

سَمِعتُ صوت إشعار آخر، انتشلني من غياهِب قصّة حُبي أنا وليلى. نظرتُ فوجَدتُ شخصًا يُدعى إيهاب محمود هو من قبل طلب صداقتي، شابٌ نحيل يرتدى قُبعة من تلك القبعات العريضة الحواف التي يرتديها الخواجات، تُدعى فيدورا أو شيئًا من هذا القبيل، لكِن لا علاقة له بالساحِل، ويبدو أنه لا يُقيم في مصر من الأساس، لذا أغلقتُ حسابه بسُرعة.

فكّرتُ بالاكتفاء بهذا القدر، ثُم تراجعتُ عن قراري، وقرّرتُ أن أستمِر في مزيدٍ من البحث، علّني أجِد شيئًا آخر، ابتسمتُ بسُخرية وهمستُ لنفسي: *على أساس إني لقيت حاجة أصلًا، فبدوّر يمكِن الاقي حاجة تانية!*

فتحتُ مُحرّك البحث جوجَل على هاتِفي، وانتظرتُ لحظة ريثما استجاب هاتِفي القديم للأمر، وكَتَبتُ في خانة البحث: «حازِم رشاد».

في غضون لحظات، ظهرَت أمامي عشرات الروابِط، إذ يبدو أن الدكتور كان مُهتمًا بالدّعاية على السوشيال ميديا أو وسائِل التواصُل الاجتماعي، لكِن وسط هذه الروابِط .. كان هُناك ما لفت نظري .. وبشدّة.

رابِط لمنشور من موقِع الفيس بوك، يظهَر شعار واسم الموقِع على اليمين، وصورة الطبيب على اليسار، قرأتُ الجُزء الظاهِر من المنشور، والمكتوب بخطٍّ صغير!

«أنا عايزة أعترِف لكم اعتراف، أنا واحدة من ضحايا دكتور حازِم رشاد، والأذى اللي شفته ... ».

لكِنني لم أستطِع قراءة الباقي، وبشرعة .. ضغطتُ على الرابِط، وانتظرتُ للحظات .. حتى يظهَر أمامي المنشور كاملًا.

(٩)

لم يظهَر المنشور، ولم أرَ له أثرًا، كُل ما وجدته هو دليلٌ على أن المنشور قد مُسِحَ، ولم يعُد له وجود على الإنترنِت، لكِن لماذا؟ لماذا مُسِح؟ وكيف اختفى؟ ألم يقُل أحدُهم يومًا أن ما يُرفَع على الإنترنِت .. يظل على الإنترنِت؟ لماذا لم يبقَ هذا المنشور بجوار أشِقَّائه؟

ضغطتُ على زرّ العودة للخلف، فظهرَت أمامي نتائِج البحث على موقِع جوجل مرّة أخرى، ضغطت على الرابِط، لكِنني شرعان ما اصطدمتُ بنفس النتيجة مرّة أخرى، لا شيء .. لا شيء على الإطلاق.

فتحتُ الفيس بوك، وتفحّصتُ صندوق الرسائِل، بحثًا عن رسالةٍ من ليلى، لكِنها لم تُجِبني بعد، ابتسمتُ وأنا أهمِس لنفسي: صحيح .. *الثُقل صنعة!*

لكِنها رفعت «ستوري» أو حالة جديدة، ضغطتُ عليها وانتظرتُ لحظة حتى ظهرَت أمامي صورتها وهي تُمسِك بكوب قهوة ورقي، عليه شِعار أحد المقاهي أو الكافيهات المعروفة، التي يرتادها الشباب هذه الأيام، ترتدي نظارةً شمسيّة تُخفي جمال عينَيها، أخذتُ لقطة شاشة من صورتها، لأحتفِظ بها في ذاكِرة هاتفي، وفتحتُها، كبّرتها مُتفحّصًا الانعكاس على عدسة نظّارتها، لكِنني لم أرَ شيئًا سوى شاشة هاتِفها، يبدو أنني أجدتُ الاختيار هذه المرّة، فهذه فتاة جميلة ومُهذّبة.

ابتسمتُ لنفسي، ووضعتُ الهاتِف في جيبي، وبدأتُ أفكّر، هل هُناك طريقة للوصول إلى بوست الفيس بوك المحذوف؟ أم أن الأمر انتهى بهذه الطريقة؟ ووصلتُ لطريقٍ مسدود؟

لكِن لا، لم ينتهِ الأمر بعد! لا بُد من وجود حل! لكِن أين؟

أنا بحاجةٍ لمُساعدة شخصٍ يُجيد التعامُل مع الإنترنِت!

أنا بحاجةٍ لشخصٍ يُجيد التعامُل مع الإنترنِت!

أنا بحاجةٍ لشخصٍ ...

وجدتها!

***

أمسَك هاتفي ونظر إليه لوهلة، قبل أن يقول: «بُص، هو فيه طريقة آه عشان نقرا بوستات الفيس بوك الممسوحة، بس عشان أكون صريح معاك، هي مش مضمونة ميّة في الميّة».

سألته بدهشة: «يعني إيه؟»

أجابني: «يعني مش دايمًا هنقدَر نوصَل للبوستات دي». صمت للحظة، ثُم قال: «على أي حال، مفيش مانِع نجرّب».

وَضَع السيجار الكوبي على الطاوِلة، وفَتَح اللاب توب الخاص به، بحث في جوجل بنفس الكلِمات المُفتاحيّة، فظهرَت أمامه نفس النتائِج، ومن بينها نفس الرابِط لنفس المنشور المحذوف، ضغط على الرابِط، بحثًا عن مزيدٍ من التأكيد، لكِن استخدام نفس المُعطيات، سيجعلنا نصِل لنفس النتائِج، أليس كذلِك؟

نظر لشاشة الحاسوب للحظة، قبل أن يُمسِك بسيجاره ويأخُذ منه نفسًا عميقًا، وقبل أن يضعه لاحظ نظراتي إليه، فأشار إليّ به مُتسائِلًا: «تجرّب؟»

ترَدّدتُ للحظة، قبل أن أحسِم أمري، وأمدّ يدي، سحبتُ نفسًا عميقًا، شعرتُ بحرقةٍ عاتيةٍ تجتاح صدري، أعتقِد أن هذا هو شعور مدينة هيروشيما عندما ألقى عليها الطيّار بول تبيتس القُنبلة الذريّة، نفختُ دُخّانه في الهواء من بين شعالي وأنا أُعيد له السيجار، تناوله ضاحكًا وقال: «حامي .. مش أي حدّ بيقدر عليه».

أخذ نفسًا آخر عميقًا، سحب دُخّانه بلُطف، تذوّق نكهته، ثُم نفّخ الدُخان ببطء، ووضعه جانبًا، وعاد للعمل على حاسوبه، للحظات قبل أن يقول: «فيه طريقة .. إنه تدخُل على الـ Cashed بتاع جوجل، ومنه تقدَر تعمل Retrieve للبوست الممسوح، بس دا مش دايمًا بينفع».

بدأ يكتُب بعض الأشياء، ويضغط على بعض الأزرار، وينظُر إلى الشاشة للحظات، ثُم يُقبّل سيجاره في مؤخّرته، وينفُث دُخّانه بعيدًا، ثُم يُكرّر نفس الخطوات؛ بنفس الترتيب مرّة أخرى.

ثُم قال مُبتسِمًا: «شكلك سالِك يا واد يا سعيد».

سألته بلهفة: «إيه؟ لقيته؟»

أجابني بثقة: «لقيته .. اتفضّل».

أدار شاشة حاسوبه نحوي، فانحنيتُ مُقتربًا منها لأقرأ الكلِمات المكتوبة بصوتٍ هامس:

«أنا عايزة أعترِف لكم اعتراف، أنا واحدة من ضحايا دكتور حازِم رشاد، والأذى اللي شُفته على إيده، مكُنتِش أحلم أو أتخيّل إني اشوفه على إيد أي مريض نفسي في يوم من الأيام فما بالكُم بقى، لمّا يبقى الدكتور النفسي، الشخص اللي بنروح له عشان يداوي جروح نفسيّتنا، هو أكتر حدّ بيؤذينا، وأكتر حد بيستغِلنا بشكل سيئ، وأكتر حد بيسلّط علينا صدماتنا وتروماتنا ..

أنا سمعت عنه، وناس كتير شكّرِت لي فيه، عشان كدا زُحت له، وكُنت فاكرة إنه دكتور مُحترم، لكِنه مكانش كدا .. مكانش كدا أبدًا!

الدكتور دا استغلني، واستغل أسراري، وضعفي بطُرق مكُنتش حتى أتخيّلها، ولمّا فُقت لنفسي، وحاولت أبعِد عنه أو أهرَب منه، استخدِم أسراري ضدّي، وهدّدني بيها!

أنا حاولت كتير والله، حاولت أقاوم، وأهرب .. بس مقدرتش! كُنت ضعيفة .. ضعيفة أوي! وحاولت أنتحِر، ويمكِن لولا وجود صحابي وأهلي حواليا .. كُنت نجحت في دا، أنا عارفة إنه هيشوف البوست دا، وعايزة أقولّه إني مش مسامحة، وجاية النهاردة أعرّف كل الناس حقيقته، وأفضحه، مش بس عشان أرتاح .. لأ!

أنا عايزة كل واحدة فيكُم حصل لها حاجة مع الشخص دا تتكلّم، متخافش، تقول كل حاجة! أنا مُتأكّدة إنى مش لوحدى اللى حصَل معاها كدا، إتكلّموا .. خلاص .. زمن السكوت مات!

تعديل: بنات كتير بعتولي إن حصَل لهم نفس اللي حصَل معايا، وهنتقابِل في سبيس خاص على تويتر نتناقِش ونشوف هنعمل إيه، المُشكِلة إنهم خايفين، ومش عايزين حد يعرَف هوياتهم أو

أسماءهم، عشان كدا السبيس هتبقى خاصّة وبرايفِت!

فلو إنتي واحدة من ضحايا الدكتور، ابعتيلي .. عشان أبعت لِك اللينك!»

***

نفخ دُخان سيجاره وقال: «مين الدكتور دا بقى يا سعيد؟ وإنت ليه مُهتَم بالقصّة دي؟» صمت للحظة، ثُم مازحني قائِلًا: «إوعى يكون اتحرّش بيك إنت كمان؟»

ترَدّدتُ للحظة، ثُم حسمتُ أمري، وأخبرته بكُل شيء، قصصتُ عليه القصّة بأكملها «من طأطأ للسلام عليكم» كما يقولون، تأمّلني للحظة قبل أن يقول: «إنت مُتأكّد طيّب من الكلام دا؟ ولا إنت شارِب حاجة؟ أصل جو الجُثّة اختفِت دا مش منطِقي!»

أجبتُه ببعض الخجل: «والله ما بشرَب حاجة يا كريم بيه، وبعدين دا اللي مخلّيني مُتردّد أصلًا أعمِل أي حاجة في الحوار دا».

سألني: «طيّب متعرفش إذا كان حدّ تاني شاف الموضوع ولا لأ؟»

«المستر خالِد كان معايا، بس طبعًا بينكر كُل حاجة عشان ميضربش الـ «سيزون» بتاع الصيف، فمينفعش أعتمِد على كلامه».

«طيّب ما تسأل الناس بشياكة كدا، بالطريقة يعني، ومن غير ما تلفِت نظرهم لحاجة».

«تفتكر؟»

«جرّب، هتخسَر إيه؟ بس بالعقل!»

فكّرتُ في الأمر، وقبل أن أُجيبه، رنَّ هاتِفه مرّة أُخرى، نفث دُخان سيجاره في الهواء قبل أن يُجيب المُكالمة، والتي كانَت مُكالمة فيديو كالمُعتاد، ظهرَت فتاة نحيلة بوجهٍ جميل على شاشة هاتِفه، ترتبط شعرها بشيءٍ يُشبِه الطرحة الـ Spanish لكِنه مُختلِف قليلًا، ترسم الآيلاينر بطريقةٍ مُلفِتة، قالَت بحماسٍ مُبالغ فيه: «كوكووووو!»

قال: «إزيّك يا بِت يا هايدي، أخبارِك إيه؟»

وأشار لي بالانصراف بيده، وهكذا انصعتُ لإشارته، وسرتُ مُبتعدًا، وأنا أهمس لنفسي: *يا بختك يا كريم بيه يا ابن المحظوظة!*

ثُرى ما الذي يحتاجه شخص مثلي كي يُصبِح مثل كريم بيه؟ باستثناء الملايين طبعًا؟ كيف يُمكِنني أن أتحدّث مثله؟ وكيف يُمكِنني أن أجذِب الفتيات مثله؟ وكيف يُمكِنهنّ أن يغرقنَ في بحور غرامي مثله؟

لا بُد من وجود طريقة!

وسأجدها!

من أجلِك يا ليلى!

(١٠)

فكّرتُ في كلام كريم بيه عن ضرورة سؤال شكّان القرية بطريقةٍ ذكيّة، في مُحاولةٍ لمعرِفة أي أخبار أو معلومات إضافيّة لم أعرِف بها بعد، وهكذا راودَتني فكرة لا بأس بها، وغيّرت مساري من غُرفة الأمن إلى شاليه حُسام بيه، المُمثّل الشكّاك!

طرقتُ بابه وانتظرتُ لحظة حتى سَمِعت صوتَه من خلف الباب: «لحظة».

فتح الباب وهو يُمسِك بيده بعض الأوراق النقدية، لكِن شرعان ما انطفأت لمعة عينِه، واحتلّ الضيق قسمات وجهه، وهو يقول: «هو إنت!»

ابتسمتُ وقُلت: «إزي حضرِتك؟»

أجابني ببعض الضيق: «الحمد لله، خير؟»

«أنا جاي أعتذِر لحضرتك عن موضوع الواد حسن، وأبلّغ حضرتك إنه فعلًا لقى محفظة فيها الفلوس دي، وسلّمهالي عشان أرجعها لصاحبها، لكِنه فعلًا مسرقش أي فلوس من شاليه حضرتك».

«ما هو برضه إنه يلاقي محفظة ويشيل منها الفلوس يُحطّها في جيبه، دا يخليه حرامي».

«أنا بعتذِر لحضرتك جدًا، وبأكّد لحضرتك إني هتابِع الموضوع بشكل شخصي والله».

تأمّلني قليلًا، ببعض الشك، قبل أن يقول وهو يبدأ في إغلاق

الباب: «تمام».

وضعتُ يدي على الباب لأمنعه من إغلاقه، فنظر إليّ بدهشة. أدركتُ أنني فعلتُ ما لم يجِب عليّ فعله، فسألته بأدبٍ جم: «مُمكِن أتكلّم مع حضرتك شوية؟»

سألني: «خير؟»

أجبتُه مُبتسمًا: «خير إن شاء الله».

سألني: «اتفضّل .. سامعك».

مازحته قائِلًا: «طب إيه؟ حضرتك هتسيبني واقِف على الباب كدا؟»

نظر خلفه، مُتأمّلًا الشاليه للحظة، ثُم طالَعني بمزيدٍ من الشك، وقال: «تعالى نُقعد في الجنينة».

سبقتُه إلى الحديقة، وقفتُ مُنتظرًا قدومه، مدّ يدَه خلف الباب، مُمسِكًا ببعض المفاتيح، ودسّها في جيب روبه القطيفة، ثُم أغلق الباب بهدوء، ووضع النقود في جيب آخر، قبل أن يسير نحوي بخطواتٍ بطيئة.

جلس ثُم أشار إليّ بالجلوس، ونظر إليّ بفضول ممزوج بعض الشكّ وبعض نفاد الصبر، وسألني مرّة أخرى: «خير؟»

توتّرتُ فجأة، لكِنني شرعان ما لملمتُ شتات نفسي، واستجمعتُ أفكاري وسألته ببعض التردُّد: «هو حضرتك شُفت أي حاجة غريبة بتحصَل في القرية اليومين دول؟»

سألني بشك: «حاجة غريبة زي إيه؟»

أجبته: «حدّ غريب؟ أو حاجة غريبة في القرية؟ أو حتى في البحر؟»

«هو فيه إيه؟ إنت بتسأل ليه؟»

ترَدّدتُ قليلًا، وتذكّرتُ نصيحة كريم بيه عن ضرورة السؤال بذكاءٍ ودون لفت أي أنظار، وهو ما يبدو أنني فشلتُ فيه بجدارة، ورغم فشلي التام فيما أتيتُ من أجله، إلا أنني نجحتُ في لفت انتباهه وإثارة فضوله.

سألني بحزم: «إيه اللي حصل يا ابني؟»

حسمتُ أمري، وقصصتُ عليه ما قلّ ودلّ، لم أُخبِره بمنشور الفيس بوك، ولا باسم القتيل، ولا بكُل تلك التفاصيل، بل بالجُثّة التي وجدناها على ضهر الحوت، قبل أن تختفي دون أن تترُك أثرًا، وأنني مُكلّف بالبحث عن تفاصيل الجريمة إنقاذًا لشمعة قريتنا العزيزة.

تأمّلني للحظة، ثُم قال ببديهيّةٍ تامّة: «طيب ما تبلّغوا البوليس!»

أجبته: «وإيه الدليل على كلامي؟ ما أنا قُلت لحضرتك إن الجُثّة اختفت!»

سألني: «مش معاك المحفظة؟»

«ما هي مُمكِن تكون واقعة من حدّ عادي، مش معنى إنها معايا إنه مات أو اتقتل!»

ظهرَت أمارات الإدراك على قسمات وجهه، وفكّر قليلًا، قبل أن

يقول: «طيّب، بما إنّك لقيت المحفظة، فأكيد عرفت اسمه، تقدَر تقارنه بأسماء المُلّاك أو المُستأجِرين هنا، وتعرَف هو ساكِن هنا ولا لأ».

تنهّدتْ قبل أن أُجيبه: «لأ، هو مش من الناس اللي بتيجي القرية باستمرار خالِص».

حكّ ذقنه للحظة، قبل أن يقول: «بُص .. هو لو هنصحك نصيحة، فمُمكِن أقولّك تحقّق في الجريمة دي إزاي، لحَد ما توصَل للي بتدوّر عليه».

سألته بدهشة: «إيه دا؟ هو حضرتك تعرَف؟»

ابتسم، واسترخى في مقعده، مُستنِدًا على ضهره، قبل أن يقول بثقةٍ مُبالغ فيها: «من فترة كدا، عرضوا عليّا دور مُحقِّق عنده شوية مشاكِل نفسيّة كدا، بيحقّق في شوية جرايم غريبة. الدور كان مُعقّد والشخصيّة مُركّبة، وكُل نجوم مصر تقريبًا رفضوه عشان خافوا منه، محدّش كان قادِر عليه .. لحَد ما جُم قعدوا مع العبد لله، وقريت الورق، وغِبت عنهم أسبوع .. ورجعت عملت معاهُم بروفة ترابيزة. كانوا هيتجنّنوا، مش مِصدّقين الجمال، وقعدت فعلًا فترة أدرِس وأذاكِر دور المُحقِّق عشان أقدَر أحكُم الدور».

سألته بفضول: «دا فيلم إيه دا يا أستاذنا؟»

أجابني: «محصلش نصيب». اعتدل في جلسته في ضِيق، وقال: «يلّا .. ملهمش في الطيّب نصيب».

سألته مرّة أخرى بفضولٍ أكبر: «الدور راح لحَد تاني؟»

أجابني بضيق: «المُخرِج الله .. الله يسامحه، قعد يعمِل تعديلات على الدور، لحد ما خد الفكرة لحتَّة تانية معجبتنيش أوي، واعتذرتُ عن الدور، وأهو في النهاية المشروع مكملش! عمومًا لو تحِب .. مُمكِن أقولّك شوية حاجات مُمكِن تساعدك».

أجبته بلهفة: «يا ريت .. أكون شاكِر لحضرتك جدًا».

انسحبَ الضيق، وعادَت الثقة لتحلّ محلّه على مُحيّاه، واسترخى في مقعده قبل أن يُجيبني: «أول حاجة المفروض تعمِل حاجة اسمها المسح الجنائي، ودا بتعمِله في المكان اللي وقعِت فيه الجريمة، وتشوف لو تقدَر تجمّع أدِلّة من المكان زي البصمات والحاجات دي. وبعد كدا لازِم تحدّد هوية القتيل .. وأظُن دي بقت سهلة بما إن المحفظة معاك، فالمفروض تبدأ تجمّع عنه معلومات عن الضحية، وتشوف المُشتبَه بيهم، ومين مُمكِن يكون شاهِد على اللي حصَل ده. بعدها بترتُّب ورقك بقى، وتبدأ تعمل التحقيق المبدئي، وتشوف لو قدرت توصَل لحاجة، بعدها عندك خطوتَين مُهمين أوي».

صمت قليلًا، وتأمّل الفضول الذي يلتمِع في عيني، قبل أن يبتسِم لنفسه عندما أدرَك أنه قد نجح في إثارة فضولي، سألته بصوتٍ هامسٍ من شدّة الإثارة: «إيه؟»

قال: «دوّر على الدافِع .. دي أهم حاجة لازِم تعمِلها وتوصَل لها في كُل جريمة قتل، الدافِع هو الشيء الوحيد اللي هينوّر لك ضلمة الجهل، وهيخليك توصَل للحاجة المُهِمّة التانية». صمت للحظة، قبل أن يُضيف: «مين المُستفيد من حدوث جريمة القتل دي؟ يعني مين الشخص اللي من مصلحته يقتل القتيل دا؟ طبعًا لو الدافِع انتقام ..

يبقى مين عايز ينتقم ليه؟ ولو الدافِع سرقة .. يبقي مين عايز يسرَق إيه؟ ولو الدافِع غضب .. يبقى مين زعلان من إيه؟ وهكذا .. لو مشيت على الخطوات دي كُلها، أعتقِد إنّك هتقدَر توصَل للقاتِل بمُنتهى السهولة».

نهض من مكانه، وقال: «يلّا بقى .. أنا عندي شُغل ومش فاضي لك».

شعرتُ بالحرَج، ونهضتُ مُعتذرًا، راقبتُه حتى وصل إلى باب شاليهه، نظر خلفه، وقال: «دوّر على الأنثى».

ثُم أغلق الباب خلفه، فسِرتُ مُبتعدًا وأنا لا أُفكّر في شيءٍ آخر سوى جُملته الأخيرة.

همستُ لنفسي: *كانِت غايبة عني فين دي؟ أكيد الموضوع وراه واحدة سِت!*

(١١)

يُقال إن خلف كُل رجُل عظيم امرأة، وهذا صحيح. لكِن هل خلف كُل شرٍّ خالِص امرأة؟ هذا غير منطِقي على الإطلاق. فعندما وزّع الله الشرور في قلوب البشر، وزّعها بالعدل، وبالتساوي، ولم يكلّف نفسًا إلا وسعها. لذا من غير المنطِقي أن يُقال إن أصل الشرور نِساء، فهُنّ ألطف الكائِنات بالتأكيد.

ناهيك طبعًا عن الشريرات، والمُخطِئات، والقاتِلات، واللِصّات، والخاطِفات، والسفّاحات، والمُخادِعات، والخائِنات، والكاذِبات، والنصّابات، والمجنونات، فكما تعلَم .. لكُل قاعِدة شواذ.

فكّرتُ فيما قرأتُ في المنشور المحذوف على موقِع الفيس بوك، قالَت في تعديلها كثيرات راسلوها بشكاوى مُماثِلة من نفس الدكتور النفسي، الذي استغلّ أسرارهنّ، وضعفهنّ بطُرقٍ دفعت أغلبهنّ إلى مُحاولة الانتحار، حتى إنهنّ تجمّعنَ في مكانٍ ما يُدعى سبيس على تويتر أو شيء من هذا القبيل لمُناقشة كيفية الانتقام منه.

إذن، فبمُنتهى البساطة يُمكِن أن تكون أيٌّ منهنّ من قتلَته، فلديهنّ الدوافِع الكافية لارتكاب مثل هذه الجريمة، لكِن كيف استطعنَ الوصول إليه؟ هذا سؤال مُهِم! كما أنني أعتقِد أنهنّ سيكنّ ضعيفات في حضرته، لأنه عالِمٌ ومُطّلِع على أسرارهنّ ونقاط ضعفهنّ! وبالتالي، سيشعرنَ أمامه أنهنّ عاريات الأرواح والنفوس!

إذن فمَن الشخص الذي من مصلحته أن يموت هذا الرجُل؟ ثُم تختفي جُثّته تمامًا؟

ربما يكون له أعداء لا أعرِف عنهُم شيئًا، وهذا منطِقي للغاية، فحتى الرُسل والأنبياء كان لديهم أعداء، حاربوهم وسعوا لاغتيالهم!

حسنًا، لأرتِّب أفكاري، أنا أبحث عن جانٍ، غالبًا امرأة، مُستفيدة من قتل دكتور نفسي مُبتز وغير سويّ، يستغل مريضاته.

أمّا بخصوص الدافِع، فهو الانتقام .. لا شكّ لديّ في ذلِك!

إذن امرأة، قريبة منه لدرجةٍ قويّة، وتشعُر برغبةٍ مريرةٍ في قتله، وتُريد الانتقام!

حسنًا .. لماذا لم أُفكِّر فيها من قبل؟

لقد عرَفتها!

فتحتُ هاتفي، وبحثتُ عن حساب الدكتور، وعندما وجدتُه .. بحثتُ فيه قليلًا حتى وجدتُ حِساب زوجته، وهو ما لم يكُن بالأمر الصعب، كونه ذكَر أنهما تزوّجا ووضعها في قائِمة بيانات الحِساب الشخصيّة، فتحتُ حسابها، وبدأتُ أتأمّلها، امرأة بيضاء، رشيقة بشكلٍ مُذهِل، ترتدي ملابِس رياضيّة في أغلَب صورها، شعرها قصير ومُجعّد أو كيرلي كما يُطلِقون عليه.

حاولت قراءة بياناتها، لكِنني لم أفهَم شيئًا، كتبَت أنها تعمَل شيئًا يُدعى لانتِـ .. . بلاسـ .. نلابتـ .. تعمل في شيءٍ مكوّن من كلِمَتين إنجليزيّتَين، ويُمكِن أن يكون أي شيءٍ بدءًا من مُدرّسة رياض أطفال وحتى مُديرة مجلِس إدارة العالَم.

حسنًا، عندما يتعلّق الأمر بالإنجليزيّة، أجِد نفسي عاجزًا عن التصرُّف، لذا توجّب عليّ اللجوء لشخصٍ ما لطلب المُساعدة، وهُنا ..

أنا أعرِف الشخص الصحيح!

***

راقبتُه من خلف زُجاج النافِذة وهو يسير في طريقه إلى مكانٍ لا أعرِفه، لا يُريد رجُل الأمن هذا أن يهدأ، ويبدو أنه يسعى لمعرِفة ما لا يجِب عليه معرِفته! لكِن هل سيصِل إلى شيء؟ كُل شيء مُمكِن!

لكِن أين يذهَب الآن؟ ولماذا لا ينفك عن الحركة في القرية ذهابًا وإيابًا بمثل هذا الحماس؟

وماذا قال اسمه؟ سعد .. لا؟ أسعَد .. لا؟ سعيد! نعم، أعتقِد أنه يُدعى سعيد!

حسنًا، لنرَ إلامَ ستصِل يا سعيد، وهل سيجِب عليّ التدخُّل لأوقِفك عند حدِّك؟ أتمنى ألا تصِل الأمور إلى هذا الحد!

أتمنى ذلِك حقًّا!

***

وجدته يعمَل في حديقه شاليهه كالعادة، يجلِس أمام الطاوِلة الصغيرة، وأمامه كوب نِصف مُمتلئ، به بعض مُكعّبات الثلج التي ملّت الجوّ العام، فقرّرت أن تذوب، وعلبة مشروب طاقة، من الذي يشرَب مشروباته بكثيرٍ من الثلج في مثل هذا الطقس المائِل للبرودة؟

سألته بأدبٍ جم: «حضرتك فاضي؟»

ابتسم وقال: «تعالى يا سعيد، خير؟»

أومأتُ برأسي إلى أحد المقاعِد الخالية، وسألته: «مُمكِن أقعُد مع حضرتك شوية؟»

أجابني بترحابٍ بالِغ: «أكيد، اتفضَّل».

جلستُ بجواره وبدأتُ حديثي: «دلوقتي أنا فكّرت شويّة، ولقيت إن أكتر حدّ مُمكِن يستفيد من قتل الدكتور النفسي دا أو إخفاء جُثّته هو السِّت مراته، وأنا بعد شويّة بحث، قدرت أوصَل لحسابها على الفيس بوك، لكِن لقيت أغلبه بالإنجليزي، وأنا زي ما حضرتك شايِف كدا .. معاييش يكمّل».

قهقه ضاحكًا، قبل أن يُمازحني قائِلًا: «واد يا سعيد، هو إنت عشان اسمك سعيد اللّوا، هتفكّر نفسك لوا بجد ولا إيه؟»

ابتسمتُ لمزحته، وقُلت: «والله لأ، الموضوع إني عايز أعرَف وأفهَم بس».

مدّ يده وقال: «وريني الأكوِنت».

مددتُ يدي له بهاتفي، تناوله وتأمّله للحظة، قبل أن يقول: «لأ، مش هينفع أدوّر على جهازك، وريني اسم الأكوِنت وأنا هدوّر من عندي».

فتحتُ له الحِساب، ورأيته يبحث عنها في خانة البحث في حسابه على الفيس بوك، وشرعان ما ظهر له حسابها، فتحه وتأمّله للحظة، ثُم فتح قائِمة البيانات وتأمّلها، قبل أن ينظُر إليّ ويسألني: «تمام، عايز إيه بقى؟»

شعرتُ ببعض الخجل وأنا أسأله: «هي بتشتغل إيه؟»

نظر للشاشة قبل أن يقول: «Pilates Instructor».

تبادلنا النظر لعشر ثوانٍ، قبل أن يفهم من كمّ البلاهة التي ظهرَت على وجهي أنني لم أفهَم كلِمة مما قال، ففسّر قائِلًا: «مُدرِّبة بيلاتس».

أجبته مازحًا: «آه، أهي كدا معقولة شويّة». ثُم اختفت ابتسامتي وأنا أسأله بجديّة: «يعني إيه بقى؟»

أجابني: «دي حاجة كدا في الجيمّات لها علاقة باللياقة البدنيّة، ودا يعني إنها مُدرِّبة مُتخصّصة في تمارين البلاتِس، ودا نظام رياضي بيهتم ويركّز على تقوية العضلات الأساسيّة، وتحسين مرونة الجِسم، والتوازُن، والحاجات دي».

سألته: «مُدرِّبة في جيم يعني؟»

«حاجة زي كدا، الجميل إنها عاملة الأكوِنت بابليك».

«يعني إيه؟»

«يعني أي حدّ يدخُل الأكوِنـ .. الحِساب يقدَر يشوف أي معلومات عنها. وعشان كدا هقولّك معلومة مُهِمّة أوي، السِتّ دي بقالها فترة فيه حاجة مش مظبوطة بتحصَل في حياتها».

«حضرتك عرفت منين؟»

قبل أن يُجيبني، قُطِعَت الكهرباء، عرَفنا من المصباح الصغير المُعلّق أمام باب الشاليه، تأمّلناه للحظة، ثُم قال: «دا تالِت يوم على التوالي».

أجبته: «بيقولوا تخفيف الأحمال بدأ عشان الصيف».

هزّ كتفَيه قائِلًا: «وهو الصيف لسّه بدأ؟ ما علينا».

ضغط على صورتها، ففُتِحت على يسار الشاشة بحجمٍ أكبر، يكشِف المزيد من تفاصيل جسدها الرشيق وملابِسها ذات الماركات العالميّة، أمّا على يسار الشاشة ففُتِحت خانة التعليقات، المكتوبة بلُغة هجينة بين العربيّة والإنجليزيّة، تُكتَب فيها الكلِمات العربية كما تُنطَق ولكِن بحروفٍ إنجليزيّة، وتُقرأ بفمٍ مفتوح وصوتٍ مكتوم، تُدعى الـ «فرانكو».

بدأ يقرأ التعليقات بصوتٍ عال: «هو محدّش بيزُد علينا ليه؟»

«هو الكلاسات إتلغَت ولا إيه يا جماعة؟»

«هو حضرتك مش هتشتغلي تاني؟»

«حدّ يطمّنا على الكوتش يا جماعة!»

«هو ينفع كدا؟ إحنا حاجزين ومظبّطين مواعيدنا على المواعيد اللي حضراتكم أعلنتُم عنها!»

وقبل أن يفهم أحدُنا ما حدث أو يستوعِب أي شيء، سَمِعنا من يقول من خلفنا: «يعني هو ينفَع كدا؟ ينفَع اللي بيحصَل دا؟»

(١٢)

كدت أقفِز من مكاني فزعًا، فقد باغتتني صيحتها، وإن كانَت هادِئة رصينة. تمالكتُ أعصابي، وأخذتُ نفسًا عميقًا، وتجاهلتُ ابتسامةً صغيرة تراقصَت على شفتي كريم بيه للحظة، قبل أن تئدها جدّيته، وتظاهُره بأنه لم يلحَظ ما حدث.

نهضتُ من مكاني، ونظرتُ إليها، إنها مِس مريم، مُمرِّضة السيِّدة العجوز، كانت تقِف خلفي، خارِج حدود فيلا كريم بيه، وتضع يدَيها في خصرها بتحدٍّ لا يليق بملامحها الملائكيّة.

من خلفي، وبطرف عيني، لمحتُ كريم بيه ينهَض بدوره، ويُحيّيها بإيماءةٍ صغيرة من رأسه، هزّة صغيرة للغاية تعني في اللُّغة المُتعارَف عليها: «*كيف حالكِ؟*» فهزّت له رأسها بإيماءةٍ أصغر، تعني: «*أنا* بخير!»

سار حتى باب حديقة الشاليه الخشبي الصغير، وفتحه وقال مُبتسِمًا: «تفضّلي يا ... ».

ابتسمَت له باقتضاب وأجابته: «مريم».

سألها بودٍّ وهي تقترِب منه: «مريم؟ اسمك حلو! حضرتك مالِك هِنا؟»

قرّرتُ أن الوقت قد حان لأتدخّل في الحوار، فقُلت: «مِس.. قصدي دي أستاذة مريم، المُمرِّضة بتاعة شاهيناز هانِم، وقاعدين معانا شوية».

رفع حاجبَيه بدهشة، وهو يقول: «شاهيناز هانم؟ هي دي الستّ الـ ... ».

قاطعته: «التعبانة اللي بتقعُد في شاليه رقم ٣، أكيد حضرتك شُفتها قبل كدا».

ابتسم قائِلًا: «مظبوط، شاليه رقم ٣، إزيّك يا مريم».

مدّ يدَه ليُصافِحها، وهو تصرُّف – لو سألتني عن رأيي – أهوَج قليلًا، لأن بعض الفتيات لا يُصافِحنَ الرِجال، لكِن مريم مدّت يدَها وصافحته باعتياديّة.

حسنًا، يبدو أنني كُنت مُخطئًا!

سألها: «خير؟ حضرتك زعلانة ليه؟»

بَدَت أمارات الإحراج على قسمات وجهها، وترَدّدت للحظة، قبل أن تقول: «لا ربّنا ما يجيب زعل! مين قال إني زعلانة؟»

أجبتها: «حضرتك لسّه دلوقتي، من عشر ثواني، مزعّقة فيّا إن اللي بيحصَل دا مينفعش أو حاجة زي كدا!»

ظهرَت عليها علامات الفهم، وهي تقول: «وهو ينفع اللي بيحصَل دا؟»

ورغمًا عني، تحرّكت عيني لثغادِر عينَيها، زحفًا على وجه كريم بيه النحيل، وعينَيه الواثِقتَين، وابتسامته الهادِئة. ورغمًا عني أيضًا، وجدتُ نفسي أُقارِن بين الأسلوب الهادئ الذي خاطبَتْه به، والأسلوب العصبي الذي تُخاطِبني به!

عجبًا، عندما يتعلّق الأمر بالنّساء، فهذا الرجُل ساحِر حقًّا!

سألتني مرّة أخرى، وكأنها تستجدي انتباهي: «ينفع؟»

حاولتُ التهدِئة من حدّة الموقِف، فقُلت: «هو طالما مضايقِك يبقى مينفعش». ثم سألتها باهتمام: «بس حضرتك مُمكِن تشرحيلي إيه هو عشان أقدَر أساعدِك؟»

أجابتني: «موضوع الكهربا اللي كُل شوية تقطَع دا؟ دا إحنا ولا اللي قاعدين في العشوائيّات!»

ابتلعتُ ريقي، ومعه ابتلعتُ عصبيتها، وكرامتي المخدوشة، وقُلت: «حضرتك عارفة بقى دخلة الصيف، كُل سنة وحضرتك طيّبة، تخفيف أحمال زي كُل سنة».

رفعَت حاجبَيها المُنمّقين، وسألتني بدهشة: «لا والله؟ تخفيف أحمال في الساحِل؟»

شعرتُ ببعض الغضب يعتريني، ما شأني أنا وأماكِن تخفيف الأحمال؟ لكِن قبل أن أُجيبها .. شعرتُ بيد كريم تربّت على كتفي، قبل أن تستقِر، ويعتصِره برفق.

فَهِمت الرسالة المُبطّنة، فالتزمتُ الصمت، وتركته يقود دفّة الحديث، وهو ما فعله فعلًا حين قال: «متقلقيش، الكام مرّة اللي قطعِت فيهم مكانِتش بتطوّل، يعني زمانها على وصول». ثم اتّسعَت ابتسامته، وهو يقول: «هو .. هو حضرتك بتخافي من الضلمة؟»

ابتسمَت لدُعابته، وقالت: «لأ، هو مش موضوع خوف أكيد».

قال: «خلاص جمّدي قلبِك شوية كدا، وبعدين دا خلاص كُلها شهر، والناس تبدأ تيجي، والمكان هيتملي ناس، وأكيد خطّة تخفيف الأحمال مش هتيجي جنب الساحِل في عزّ الموسِم، ولا إيه؟»

انتظرتُ إجابتها، لكِنها نظرَت لي بتركيز، كدتُ أضيع في عينَيها المرسومتَين، ورموشها الطويلة الساحِرة للحظة، قبل أن أشعُر بكريم بيه يضغط على كتفي برفقٍ مرّة أخرى ليُنبّهني أن سؤاله كان موجّهًا لي.

أفقتُ من ذهولي المؤقّت، وانتشلتُ نفسي من بحر جمالها الرهيب، القادِر على سلب عقول أعتى الرجال وأكثرهُم فحولة، ونظرتُ إلى كريم بيه بدهشة!

فَهِم من دهشتي أنني لم أستوعِب سؤاله بالكامِل، فكرّره ثانيةً: «أكيد خطّة تخفيف الأحمال مش هتيجي جنب الساحِل في عزّ الموسِم، ولا إيه؟»

انتبهتُ من دهشتي، ونظرتُ إليها قائِلًا: «أنا مش عايز حضرتِك تقلقي خالِص، معتقِدش إن الساحِل من الأماكِن اللي الكهربا بتقطَع فيها باستمرار، يمكِن دا بيحصَل دلوقتي بس عشان قبل زحمة الصيف، لكِن مُجرّد ما الصيف يبدأ والمكان يشغي بني آدمين .. الكهربا هتفضَل موجودة».

نظرَت لي قليلًا، وكأنها لا تُصدّق ما قُلته، قبل أن أضيف: «وبعدين كدا كدا يعني إحنا عندنا خطّة بديلة، كُنت لسّه بتكلّم مع المِستر خالِد، وقالي إنه اشترى مولّد جديد كبير، وكلّفه جامِد يعني .. عشان النور ميقطعش ثانية عن المكان، وحضراتكُم تفضلوا متطمّنين

بوجود النور والكهربا».

هدأت أمارات القلق قليلًا، وسمحت لجمالها الساحِر بالعودة إلى مكانه للحظة، قبل أن تسألني بجديّة: «طيّب هو المولّد الجديد ده، ناويين تشغّلوه إمتى؟»

أجبتُها: «في أقرَب وقت مُمكِن أكيد، خلّيني برضُه أتأكّد من المِستر خالِد، وأقول لحضرتك».

ضغط كريم بيه على كتفي برفق، فانتبهتُ إلى أن ثِقل يدِه لا يزال على كتفي، وسألها: «طيّب حضرتك الضلمة مضايقاكي في إيه؟ فهّمينا عشان سعيد يقدَر يساعدِك». ثم سألني: «ولا إيه يا بطل؟»

يتعمّد أهل هذه الطبقة التحدُّث مع الآخرين بصيغة (بطل) و(أستاذ) و(نجم) وخلافه كنوعٍ من أنواع التقليل غير المُتعمّد، تمامًا مثلما يتحدّث البالغون مع الأطفال بهدف إسعادهِم قليلًا، لكِن كريم بيه شخص لطيف وغالبًا لا يقصِد هذا.

تنحنحتُ لأجلو حلقي، وقُلت: «طبعًا .. طبعًا، أي حاجة تضايِق حضرتك قوليلي وأنا هتصرّف على طول».

ارتبكَت قليلًا للحظة، قبل أن تقول: «لا مش متضايقة من حاجة أكيد، الموضوع وما فيه بس عشان الأجهِزة بتاعة شاهيناز هانِم، بخاف عليها لو الكهربا طوّلت، مُمكِن تحتاج جلسة أوكسجين أو حاجة يعني».

أجبتها: «ألف سلامة عليها، لأ إن شاء الله الكهربا تيجي على طول ومتتأخرش، ولو فيه أي حاجة حضرتك قوليلي على طول

وهنتصرّف، مُمكِن نبعَت نجيب لها عربية إسعاف من النُّقطة هنا ولا حاجة».

تدخّل كريم بيه في الحوار قائِلًا: «أنا معايا العربيّة، لو لا قدر الله حصَل أي حاجة، نقدَر نتصرّف بشرعة بدل ما نستنى الإسعاف والكلام دا».

ابتسمت وشكرته: «شكرًا يا أستاذ ...».

قال: «كريم، اسمي كريم».

«تشرّفنا يا أستاذ كريم».

أجابها مُبتسِمًا: «الشرف ليّا حقيقي». ثم أضاف بجديّة: «واسمحيلي أنصحِك يعني .. مُمكِن حضرتك تكلّمي شاهي هانِم إنكم تشتروا مولّد صُغيّر يبقى موجود في البيت تحسُّبًا لأي موقِف زي دا».

هززتُ رأسي قائِلًا: «والله فكرة حلوة».

قهقه قبل أن يقول: «جرى إيه يا سعيد؟ ما أنا كُل أفكاري حلوة، إيه الجديد؟»

أجبته: «دا حقيقي والله، كريم بيه مش بيقول غير دُرر».

ابتسمت وقالت: «مُتشكّرة أوي يا أستاذ كريم، هعمِل كدا أكيد».

كادَت تستدير لترحل، لكِن الكهرباء سبقتها ووصلَت، لتُنير المكان بأكمله، قال كريم بيه وهو ينظُر للمصابيح: «أهو .. الخير على قدوم الواردين .. وشُك حلو يا مريم».

احمرّت وجنتاها خجلًا وهي تقول: «الله يخليك، شكرًا».

لكِن قبل أن ترحل، تحرّكت عيناها بشكلٍ تلقائي إلى شاشة الحاسوب المحمول، ورأت الصورة المفتوحة، نظرت لها بدهشة للحظة، قبل أن تنظُر إلينا وتقول: «إنتم بتعملوا إيه؟»

(١٣)

تبادلنا النظر أنا وكريم بيه للحظة، قبل أن ننظُر إليها مرّة أخرى بدهشة، سألها كريم بيه: «مالِك؟ إيه اللي حصَل؟»

أشارَت بيدِها الناعِمة، وأصابِعها النحيلة، ذات الأظافِر الطويلة التي يكسوها طِلاء وردي ثابِت إلى شاشة الحاسوب، وقالَت: «مش دي كيكي؟»

نظرنا لها بدهشة، قبل أن يسألها كريم بيه: «مين؟»

قالَت وهي تُشير إليها مرّة أخرى: «كيكي؟ كاميليا .. كاميليا العقّاد؟»

ارتفع حاجِبا كريم بيه وهو يقول: «إنتِ تعرفيها؟»

ابتسمَت وقالَت: «أعرَفها كويِّس، دي مُدرِّبة Pilates وZumba في جيم مشهور أوي، كُنت بروحه ساعات».

انقبضَت ملامحي وأنا أتنهّد، لاحظ كريم بيه الضيق الذي اعتراني، فسألني: «مالَك يا سعيد؟»

أجبتُه بنفاد صبر: «أنا لسّه مش عارِف الأولانيّة، ألاقي زوربا كمان؟ وبعدين زوربا دا مش كان يوناني باپن؟ واتعمل فيلم؟»

قهقه كريم بيه وقال: «إنت تقصُد (Zorba the Greek) بتاع (Anthony Quinn)، وآه دا كان يوناني عادي، لكِن هي تقصُد رقص الـ Zumba، ودا موضوع تاني خالِص، دا نوع من أنواع الرقص اللي شبه التمارين الرياضيّة، المُعتمِدة على خلط الرقص والتمارين،

وبيتعمل على مزيكا عالية أوي».

سألته بارتباك: «رقص؟ في الجيم؟»

أجابني مُبتسِمًا: «هو مش رقص رقص من اللي في دماغك، هو حركات سريعة على أنغام المزيكا، فبيبقى شبه الرقص شويّة يعني».

سألته، مُحاولًا دفن غُبار جهلي تحت طرف سجادة الفُكاهة: «تمام، فدلوقتي لمّا بنحِب نرقُص بنروح الجيم! طيب ولو حبّينا نلعب حديد .. نروح شارِع الهرم بقى ولا نعمِل إيه؟»

قهقه وقال: «إنت مسخرة يا سِعدة». ثُم التفَت إلى مِس مريم، وسألها: «قُلتيلي إنها كانِت بتروح جيم مشهور؟»

قالَت: «آه، كُنت متعوِّدة أشوفها هِناك فعلًا».

سألها: «حضرتك فاكرة اسمه طيِّب؟»

أجابته: «أعتقِد آه، بس مش فاكرة هو كان أنهي فيهم». ثُم أشارَت للحاسوب وقالَت: «مُمكِن أستخدِم اللاب؟ أعتقِد إني هلاقي البيدج بسهولة».

تحرّك من مكانه، وأمسَك بمرفقي ليُبعدني عن طريقها وهو يقول: «طبعًا، اتفضّلي».

تحرّكت كنسمة هواءٍ بارِد في ليلة صيف حار، تُرطِّب القلوب وتُهدِّئ النفوس، تخطف العيون وتسلُب الألباب، رشيقة كانَت .. وخُلوة. وكما تتسلّل إلى القلوب بهدوء، تسلّلت رائِحتها إلى الأنوف. رائِحة زكيّة، مسكّرة كما يقولون.

أفقتُ من أفكاري على صوت صفير خافِت، مليء بالإعجاب والتقدير، قبل أن يقول كريم بيه: « Chanel Chance؟»

التفتَت له بدهشة وقالَت: «مظبوط، عرفت منين؟»

نظر لي مُبتسِمًا وقال: «شوف، خلّيك شاهِد، بتشكّك في قُدراتي».

ابتسمَت بخجلٍ وقالت: «لأ والله مش قصدي، بس قُليّل لمّا حد يعرفه بسهولة كدا».

لم يكُن لديّ أي فكرة عمّا يتحدّثان، لكِنني ابتسمتُ وهززتُ رأسي مثل محمد هنيدي في فيلمه الشهير «فول الصين العظيم»، مُتظاهرًا بالفهم.

لكِن شرعان ما تدخّل كريم بيه لِينقِذني من جهلي المُحدق، عندما قال: «من العطور اللي بحبها أوي، خصوصًا الـ Top Note اللي فيها أناناس، رهيبة، إنتِ تعرَفي إنه بيرمُز للحظ والتفاؤل؟»

أجابته: «الصراحة لأ، مكُنتش أعرَف المعلومة دي».

قال بابتسامةٍ عريضة: «أي خدمة، أدِيني بعلّمك ببلاش أهو».

ابتسمَت بخجل، وتوزّدَت وجنتُها، قبل أن تجلس أمام اللاب توب، وتُحاوِل تذكُّر اسم الجيم، جرّبت عدّة أسماء، وضغطَت بعض الأزرار، تأمّلت بعض الصفحات، وجذبَت بعض الأفكار، وشرعان ما تذكّرت اسم الجيم، وكتبت حروفه .. وبحثَت عن صفحته، التي شرعان ما وجدَتها، وضغطت عليها لتفتحها.

وأمامنا .. ظهرَت صفحة (FitSphere Gym).

ارتفعَ حاجِبا كريم بيه بدهشةٍ وهو يتأمّل الصفحة، قبل أن ينظُر لها ويسألها: «مُتأكّدة؟»

هزّت رأسها بالإيجاب وقالَت: «هو».

نظر لي وقال: «دا واحِد من أهم وأشهر جيمّات مصر، تعرفه يا سِعدة؟»

كدتُ أجيب بالموافقة، لكِنني خشيتُ أن يسألني عن شيءٍ في تفاصيله، فيتجلّى جهلي كاشِفًا عن كذبي وخداعي، لذا التزمتُ الصمت وهززتُ رأسي نفيًا.

فتطوّع بتوضيح بعض المعلومات قائِلًا: «الجيم دا مش بيروحه غير طبقة مُعيّنة، الـ A Class زي ما بيقُولوا عليهم، دا غير المشاهير من المُمثّلين والمُذيعين والـ Bloggers الجُداد والحاجات دي، فإن كاميليا دي تكون بتدرّب هِناك، فدي حاجة مش عاديّة ولا سهلة خالِص».

سألته: «طيّب هنتصرّف إزاي دلوقتي؟»

ابتسم وقال: «الموضوع بسيط، هنبعَت رسالة نسأل الجيم على مواعيد كلاسات كاميليا عشان نشترِك معاها، وساعتها هنقدَر نحدّد وضعها».

تبادلنا أنا ومِس مريم النظرات، وأظُن أن كلَينا اعتقد أنها فكرة جيّدة، ولا بأس بها.

وهكذا شرع في تنفيذها، ضغط على خانة الرسائِل وبدأ يكتُب، تحرّكتُ لأقِف خلفه، حتى أنظُر من فوق كتفه.

«مساء النور، كُنت بسأل على كلاسات كيكي، مواعيدها إيه؟ وأسعارها إيه؟ وهل مُتاح Private؟»

لم تفُر لحظات حتى أتاه الرد، لأن المشاريع الكُبرى المُهِمة تُدرِك جيّدًا مدى أهميّة الوقت لدى عُملائها، ومدى شرعة الحياة، لذا تحرص على الردّ في أسرَع وقت مُمكِن.

«مساء النور يا فندم، بخصوص استفسار حضرتك، فمدام كيكي مش مُتاحة دلوقتي، لكِن مُمكِن نرشّح لك ناس تانية، وبنفس الكفاءة تقريبًا».

تأمّل الرسالة للحظة، قبل أن يكتب:

«مساء النور، شكرًا جدًا، لكِن أنا بسأل على مدام كيكي تحديدًا».

أتاه الرد:

«للأسف يا فندم بنعتذِر لحضرتك، مدام كيكي غير مُتاحة في الوقت الحالي نظرًا لظروف عائِليّة خاصّة».

كتب:

«هل مُتاح أعرَف هترجَع إمتى بالضبط؟»

فأجابوه:

«برجاء إرسال رقم الهاتِف والاسم الثّلاثي والعنوان بالتفصيل، وسيتم التواصُل مع حضرتك بمُجرّد وصول مدام كيكي وبدء الكلاسات الجديدة».

تنهّد، لكِنه لم ينبس ببنت شفة، لذا سألته: «خلاص كدا؟ حيطة سد؟»

أجابني: «تقريبًا، بس مفيش حاجة ملهاش حلّ، خليني أفكّر ثواني بس».

عضّ على شفتِه السُفلي وهو يُفكّر، وهي عادة غريبة يبدو أنها ثلازِمه منذ حين، لأنه فعلها دون تفكير، نظرتُ إلى مريم التي راقبته في صمتٍ تامٍّ.

توقّف عن عض شفته السُفلى، وزمّها بتركيز، وهو يُحرّك يدَه على حاسوبه المحمول، عاد للصفحة الرئيسيّة الخاصّة بالجيم، ضغط على زرّ المُشتركين في الصفحة، أو اللايكات، وبدأ يتأمّل قائِمة الأصدِقاء المُعجَبين بالصفحة، وهو عُدد – وفقًا لما رأيته – لا بأس به.

قبل أن يبحث بين منشورات الصفحة عن أي منشورٍ يتحدّث عن مدام كيكي، حتى وَجَد صورة لها وهي تتمايَل في ليونةٍ لا بأس بها، وحولها كلام كثير باللُغة الإنجليزيّة، كلام لم أفهمه للأسف، لكِن يبدو أنه فهِمه بسهولةٍ، فَتَح الكومِنتات وبدأ يبحث بينها للحظة، قبل أن تتّسِع ابتسامته وهو يقول: «أوباااااااا».

نظر إلينا مُبتسِمًا، تراقص النصر على شفتَيه بخفةٍ وليونةٍ، مما أخبرنا أنه وجد شيئًا ثمينًا، لكِنه أراد الحصول على لحظةٍ دراميّة لا بأس بها، ووجدتُ أنه من العدل تركه يستمتِع بها، لذا انتظرتُ لوهلةٍ قصيرة قبل أن أسأله: «ها .. فيه إيه؟»

أمسَك هاتِفه وقال: «حالًا هتعرَف».

بحث في قائِمة الأسماء، حتى وَجَد ضالّته، ضغط على الرقم، وانتظر للحظةٍ قبل أن يقول بمرح: «طيب والله وحشتيني .. يعني لو مسألتِش .. متسأليش؟»

(١٤)

بالطبع لم نسمَع المُكالمة بالكامِل، استمعنا فقط – أنا ومريم – إلى أسئِلة كريم بيه وإجاباته، وكوّنّا تصوُرًا شِبه كامِل في البداية عن ردود وإجابات الطرف الثاني، الذي لم نعرِف هويّته بعد.

«فينك كدا يا وِحشة؟»

«رجعتي من السفر إمتى؟»

«حمد لله على سلامتك يا سِت الكُل، طيّب بقولّك إيه .. أنا هفتَح المايك عشان جنبي ناس عايزهُم يسمعوا كلامِك».

«يا ستّي هتعرفي كُل حاجة! إنتِ ليه صبرِك قُليّل كدا؟»

فتح السمّاعة الخارجيّة، وسَمِعنا صوتها العذب يشدو مشوشًا بقليلٍ من التشويش الإليكتروني، القادِر على خدش رقّة الأصوات وتغييرها قليلًا، وقال: «كدا المايك مفتوح، معايا هِنا سعيد ومريم .. ضُحابي الجُداد».

قالَت بدلال: «Hi Guys!»

ثُم قال: «ودي بقى شيمو، أجمَل بنوتة في الدنيا، وصديقة شخصيّة، وسيّدة أعمال مُهِمّة، وشوية حاجات كتير كدا فوق بعض».

قهقهت بنعومة وقالَت: «متصدقوهوش يا جماعة، دا مُجامِل أوي».

قال مُشاكسًا: «ولا مُجامِل ولا حاجة، هي اللي متواضعة ومش عارفة قيمة نفسها كويّس».

«نضّاب أوي وحياة ربّنا».

«وأنا أقدَر أنضُب على القمر برضه يا قمر؟»

«خير بقى يا بكّاش؟ بتكلّمني ليه؟ حاكِم دا ميكلمنيش إلا لو كان عايز مصلحة».

«بقى كدا؟»

«آه كدا! لو عايز يبقى معنديش حق .. كلّمني كتيرا!»

«حقّك يا ستّي، المُهِم .. تعرفي جيم اسمه (FitSphere Gym)؟»

«سفير؟ For Sure! ماله؟ عايز تشتريه ولا إيه؟»

قهقه قائِلًا: «لأ، مش للدرجة دي يعني! عندي سؤال بس بخصوص كلاس هناك».

«كلاس؟ كلاس إيه؟»

«Pilates».

«إيه دا؟ إنت خلاص نويت تهتم بصحّتك ولا إيه؟»

أجابها: «لأ خالِص! أنا وِش كدا برضه؟ أنا عرفت إنّك بتروحي كلاس هِناك مع مُدرِّبة اسمها ... ».

نظر إلى مريم، مُستنجِدًا هروب اسمها منه، فهمسَت له دون صوت تقريبًا: «كيكي».

ابتسم لها وأومأ برأسه برفق كتعبيرٍ عن شُكره، وهو يُتابِع حديثه: «كيكي! تعرفيها؟»

«كيكي؟ دي القمر بتاعتنا .. مالها؟»

«مُختفيّة بقالها فترة .. عايز أعرَف ليه؟»

صمتت للحظة وقالَت: «مممممم، بُص أنا معرفش أوي بس كُنت سمعت حاجة كدا مش مُتأكّدة صح ولا لأ».

أجابها: «قوليلي، يمكِن الموضوع يفيدني».

ترَدّدت للحظة، قبل أن تقول: «بس دي نقّاية متطلعش برة خالِص .. فاهِم يا كوكي؟»

أجابها: «حبيب قلب كوكي».

«فاكِر ميريت؟ اللي كان عندها شركة مقاولات دي».

«ميري .. طبعًا فاكرها كويّس، مالها؟»

«كانِت بتيجي معايا الكلاسات دي، وهناك حكتلي حاجة مش هتصدّقها .. Guess What؟»

«What؟»

«فاكر شريف؟ شيري .. البروكر اللي كان صاحِبنا فترة دا».

«فاكرُه كويّس، كُنت هشتري منه حاجة في Palm Hills بس الموضوع مكمِلش وقتها، وزعل مني شويّة وبطّل يرُد عليّا، ماله؟»

«كان مصاحِب واحدة، وقعدوا سوا فترة، وبعدين اكتشفنا بقى إنها كانِت الـ EX بتاعة رامي، His Best Friend، ورامي مكانش يعرَف إنهم متصاحبين، وبعدين عرف .. وراح يعاتبه، شيري ردّ عليه

ردّ مش لذيذ، You Know بقى الشباب في الحالة دي، مش بيبقوا لُذاذ خالِص، المُهِم رامي اتضايِق موت، خصوصًا إن الردّ كان أُدام الناس كُلها، وساعتها قاله: ردي هيوصلك قُريِّب».

«إيه جوّ الأفلام العربي دا؟»

«لأ، إنت مش فاهِم يا كوكي، دا ردّ عليه فعلًا، صحينا تاني يوم لقينا بوست على بيدج اسمها «شيخ الحارة»، بتتكلّم عن واحدة مِشَت مع اتنين قرايِب، وحزّر فزّر مين صورته كانِت موجودة؟»

«لأ، متقوليش .. رامى كان واطى أوى كدا للدرجة دى؟ إوعى تقولي إنه لفّق صور للبنت مع أي حدّ من قرايبه؟»

«لأ، It Was Worse Than That، حطّ صور البنت فعلًا بس مضطرّش يلفّق أي صور، لإنها فعلًا كانِت ماشية مع باباه فترة، وحط لها صور وهي في حضن باباه».

«أوووووف، إيه دا؟»

«صح؟ شيري مبقاش قادِر يبُص في وشها أصلًا، حتى بعد ما حلفت له إنها مشت مع باباه زمان فترة صُغيّرة، ومحصلش بينهم حاجة، بس خلاص .. إنت فاهِم يعني إيه واحدة مِشَت مع ولد وباباه؟ طبعًا الناس كُلها بقت تعايِر شريف وتتريّق عليه، وبيقولوا له إن مش بعيد لو إتجوّز وخلّف .. هتمشي مع ابنه كمان!»

«طبيعي، الراجِل فجأة بقى مصاحِب واحدة كانِت مع باباه! يعني في مقام مامته! وبعدين؟ عمل إيه؟»

«سابها طبعًا، الموضوع مكانش فيه أي حاجة تانية تتعمَل غير

كدا، وصفّى البيزنس بتاعه هنا، وراح دُبي .. وشغال في شركة هناك، بروكر برضه .. بس مش فاكرة اسمها إيه بصراحة».

قال: «دا أقل واجِب». ثُم صمت للحظة قبل أن يسألها: «شيمو، أنا إيه علاقتي بالقصّة دي؟»

نفخَت في نفاد صبر وقالَت: «يووووووه، طول عُمرك مستعجِل على رزقك، إنت متعرفش إن لو صبر عبد القادِر على المقتول كان مات لوحده؟»

أجابها بضحك: «عبد القادِر مين؟ لو كان القاتِل صبر على المقتول كان مات لوحده!»

ضحكت من قلبها وهي تقول: «Are You Serious؟ أنا كُنت فاكرة القاتِل اسمه عبد القادِر والله».

قهقه من قلبه قبل أن يقول: «والله إنتِ مسخرة، إخلصي يا بنت، إيه علاقتي بالقصّة دي؟»

أجابته: «ميري كانِت بتيجي معايا الكلاسات، وبعدين بشرعة .. بقت هي وكيكي صُحاب وقرّبوا من بعض، عشان كدا لمّا كيكي اختفَت، ومحدّش فينا كان قادِر يوصَل لها، كلّمت ميري أسألها عنها، وقالتلي سر».

تبادل ثلاثتنا النظر بفضول، قبل أن يقول: «سِرّ إيه؟ قوليلي فورًا».

أجابته: «بيقولوا إن فيه خناقة كبيرة بينها وبين جوزها، الڤيرابيست دا باين، وإن الموضوع مش هيخلص نهاية حلوة خالِص».

سألها: «قصدِك إيه؟»

أجابته: «مش عارفة، بس ميري قالتلي كدا، تحب أسألها؟»

قال بشرعة: «تبقى خدمتيني والله!»

قالَت بدلال: «بس هيبقالي عندك عزومة Sushi! Deal؟»

أجابها: «Deal يا قمر».

وهكذا انتهَت المُكالمة بحصولنا على معلومة جديدة مُهِمة، وإعجاب مُتزايِد تجاه هذا الرجُل الساحِر القادِر على التعامُل مع كُل هذه النِساء بهذه الطريقة، واكتساب الصداقات القويّة بينه وبينهن، في حين يُعاني (٩٠٪) من شباب هذه الدولة للتعامُل اليومي فقط مع الفتيات!

أتمنّى حقًا أن أُصبِح مثله في يومٍ من الأيام!

نظر لي وقال: «دلوقتي إحنا عرفنا إن بينه وبين مراته مشاكِل، وغالبًا إنت عارِف سببها».

نظرَت لي مريم بدهشة وقالَت: «سبب إيه؟ أنا مش فاهمة حاجة! مُمكِن تفهموني؟»

وهكذا شرحنا لها كُل شيءٍ بتفاصيل مُختصَرة، بداية من الجُثة المُختفية، وحتى وقتنا هذا، شعرَت بالفزع وبدأت تتلفّت حولها بخوفٍ وهي تقول: «يعني إيه؟ يعني فيه قاتِل ما بيننا هنا؟»

أجابها كريم بيه مُحاولًا تهدئتها: «غالبًا لأ، القاتِل عمل عملته وهرب يا مريم، اتطمّني».

بدأت تهدأ قليلًا، وإن رأيتُ المزيد من الهيستريا في عينَيها، لاحظتُ رعدة صغيرة تنتاب شفتها السُفلى، ورعشة في يدَيها، أخفتها بأن أغلقت قبضتَيها بإحكامٍ شديد.

قُلت لها: «متقلقيش .. كُل حاجة هتتحل قُريّب».

هزّت رأسها وقالت بهمس: «حاضِر .. حاضِر».

عاد كريم بيه لاستكمال حديثه قائِلًا: «المشاكِل دي بقى، حسب ما شيمو قالِت، مش هتنتهي نهاية حلوة، عارفين دا معناه إيه؟»

لم أفهَم قصده للوهلة الأولى، لكِن مريم قالَت وعيناها تلتمِعان بحماس: «الكلام دا مالوش غير معنى واحِد بس». صمتت لحظة، قبل أن تقول: «إن مراته، مدام كيكي، هي اللي قتلته!»

(١٥)

غُدت إلى غُرفتي، مُثقلًا بالأفكار، ومليئًا بالأسئِلة، أشعُر كمركبٍ يكاد يغرق من ثقل حمولته، لكِن أيمتلِك من هُم مثلنا رفاهية الغرق؟ الاستسلام؟ الراحة؟ الإجابة هي لا، وبدون تفكير.

فتحتُ بابي، ودخلتُ إليها، تسلّل بعض البرد من الخارِج، لكِن دفء الغُرفة صارعه، حتى انتصر، وبدأ يلتف حول عظامي ليطرُد البرد والرطوبة منها، ولم تفُر دقائِق حتى شعرتُ بالدفء يغمُرني ويحتضِنني، فيُهدّئ من ثورة توتُّري وقلقي.

جلستُ على طرف فراشي، خلعتُ حذائي، وسمحتُ لقدمي بالتنفُّس قليلًا، ثُم نهضتُ، كُنت أنوي غسل وجهي فقط، لكِن أنفي اشتكى قليلًا، إذ إنني لم أستحِم اليوم، ومع كثرة الحركة، والذهاب والإياب، يغسِل العرق النظافة عن جسدي، فيُنتِن رائِحتي ويلوِّث طهارة جسدي.

وهكذا خلعتُ عني ملابسي، واستحممتُ بسُرعة. وقفتُ تحت الماء الدافئ، أتخيّل نفسي مُصارعًا انتهى لتوّه من الجولة الأخيرة على لقب العالَم، أنهكه القِتال لكِن الفوز مدّه بالطاقة اللازِمة للاستحمام، أو عاشقًا خذلته حبيبة، فوقف تحت المطر يَبكيها للطبيعة، أو أي شيءٍ آخر. لكِنني لم أرَ مانعًا من تقلُّد بعض الدراما لأفصِل بها خيط أفكاري التي لا تتوقّف.

مرّت ثلاثة أيام منذ وقوع جريمة القتل .. ثلاثة أيام حدثَت فيها الكثير من الأمور .. اختفَت فيها الجُثّة، وزاد عدد المُشتبَهِ بهم. لكِنني

بحاجةٍ لترتيب أفكاري، وبحاجةٍ أيضًا للتفكير على مهلٍ.

وهكذا خرجتُ من تحت الماء الدافئ، جفّفتُ الماء عن جسدي بمِنشفةٍ خشِنة، وارتديتُ ملابسي على عجلٍ أصاب نزلة البرد التي تنتظِر أن تُصيبني بخيبةِ أملٍ حقيقيّة، وخرجتُ لأجلِس على طرف فراشي مرّة أخرى.

وضعتُ هاتفي في الشاحِن المُصاب بقطعٍ في سلكه، والذي حاولتُ تضميد جرحِه ببعض اللاصِق الأسود المُسمّى بالـ «شيكارتون»، وتأكّدتُ من أنه يحظى بإمداده الدائِم من الكهرباء.

وما إن اطمأننتُ عليه، حتى أمسكتُ بالورقة والقلم، وبدأت أفنّد أفكاري بهدوء ورويّة:

أولًا: قائِمة الأحداث الغريبة التي حدثَت خلال الثلاثة أيام الماضيَة:

- وجدنا جُثّة رجُل مقتول بوحشيّة.

- الجُثّة اختفَت بطريقةٍ غامضة.

- تعرّفنا على هوية صاحِب الجُثّة.

- اكتشفنا سرًّا بشِعًا كان يُخفيه عن الجميع قبل أن يفضَح الله ستره.

- وجدنا حساب زوجته على منصّات التواصُل الاجتماعي.

- لكِنها مُختفية منذ فترة، حتى عن عملها.

- نشتبِه أنها القاتِل (على الأقل حتى الآن).

ثانيًا: قائِمة من يعرِفون بحدوث الجريمة حتى الآن (سوايَ):

- المِستر خالِد؛ صاحِب القرية.

- حُسام كامِل؛ المُمثِّل الشهير.

- كريم بيه؛ الحانوتي المودِرن.

- مِس مريَم؛ المُمرِّضة الجميلة.

ثالثًا: قائِمة المُشتبه بهم (من وجهة نظري) حتى الآن ودوافعهم:

- المِستر خالِد؛ والدافِع هو الحفاظ على السيزون وشمعة القرية.

- خليل حاتِم؛ غريب الأطوار الذي دائِمًا ما يتصرّف بشكلٍ غريب.

- مدام كاميليا أو كيكي؛ زوجة القتيل الغائِبة، والتي غالبًا اكتشفَت سرّه وعاقبته عليه.

- أي واحِدة من ضحاياه اللاتي اعتدى عليهِنّ أو استغلّ أسرارهن (لكِنني لا أعرِف هويّة أيُهنّ!).

شعرتُ بذهني أصفى، وبرأسي أخف. كما أن جسدي استرخى بشدّة بسبب الماء الدافئ، وهكذا وجدتُ نفسي أريد النوم، دخلتُ تحت الغطاء، أسندتُ رأسي على الوسادة، وطفقتُ أفكّر في المعلومات التي فنّدتُها في الورقة، حتى شعرتُ بظلامٍ دامِسٍ يُهاجمني، يُسيطِر على كُل حواسّي، ويُقيّد وعيي.

لم أكُن قادرًا على المقاومة، لذا استسلمتُ له، وغططتُ في نومٍ عميق.

الشيء الذي لم أكُن أعرِفه، وسأكتشِفه بعد عدّة ساعات، بمُجرّد استيقاظي، أنني سأجِد كارثة .. كارِثة حقيقيّة في انتظاري!

***

«بقولُكم إيه يا شباب، فيه عيّل سرسجي قافِش أكوِنت حد منّنا، وعامِل لنا كُلنا ADD، أنا معرفش هو تبع مين أو جاي منين، بس رجاءً يا جماعة ننضّف الـ Friend List بتاعتنا شوية، مش دي الأشكال اللي هنصاحِبها على آخر الزمن».

المُشكِلة أن المنشور لم يكُن بمُفرده، أو لحاله. بل كان مصحوبًا بصورتي .. الصورة التي أستخدِمها كصورةٍ شخصيّة على الفيس، وكذلِك تاج للحساب الخاص بي.

لطالما سَمِعتُ تعبير «قلبي سقط في قدمي»، لكِنني لم أُفهَم معناه حتى هذه اللحظة، في تلك اللحظة تحديدًا فَهِمتُ فيها المعنى الحرفي لهذا التعبير، لأن قلبي لم يكتفِ بالانقباض فحسب، بل قرّر أن يتحوّل إلى حجرٍ ثقيل، أثقل من قُدرة صدري على حملِه، وهكذا هوى من علٍ، ليسقُط في قدميّ.

أنا؟ أنا (عيل سرسجي)؟

أنا؟ أنا (الأشكال اللي هنصاحبها على آخر الزمن)؟

مَن الذي منح هذا الـ .. هذا الصفيق، وهي كلِمة لا أعرِف معناها لكِنني أعرِف أنها سبّة مُهينة بعض الشيء، الحق في نعتي بهذه الصِّفات؟ من الذي منحه السُلطة الكافية للتفرقة بين البشر وتقسيمهم في هذه الفِئات؟

وما الذي جعلني .. ما الذي جعلني أقع تحت قائِمة تلك الأشياء التي نعتني بها؟ أهو زِيّي؟ ملابسي؟ أم شكلي؟ أهي تصفيفة شعري؟ أم بشرتي التي لوّحتها الشمس؟

لأنه بالتأكيد لم يعرِف من أنا أو كيف أتحدّث من حسابي على الفيس!

ولماذا لم يكتفِ بكتابة المنشور دون صورةٍ أو منشن؟ لماذا صمّم على وَضمي بهذا العار بطريقةٍ ثُلاثيّة الأبعاد؟

والأسوأ؟ أنه منشن لعددٍ كبير من الأصدِقاء المُشتركين بيني وبينه! وهي حصيلة الإضافات العشوائيّة لقاطِني حساب الدكتور حازِم، السيئ الذِّكر والسُمعة.

وفي اللحظة التي اعتقدتُ فيها أن الأمور لا يُمكِن أن تزيد سوءًا، تذكّرتُ ليلى! فاتِنتي وحبيبتي المُستقبليّة! الفتاة التي لم أرَ في مِثل جمالها يومًا! التي سأمطِر أُمي يوم فرحها بسندوتشات البسطرمة والجبن الرومي!

فتحت الحِساب مرّة أخرى، ودخلتُ إلى المنشور المُسيء، ورغم ألَمي لرؤيته، وعدم قُدرتي على النظر إليه دون أن أستشيط غضبًا، أو تغرورق عيناي بالدموع، وبحثتُ بين قائِمة الحسابات التي ذكرها الوغد اللعين.

ووجدتها! وجدتها وسط الحِسابات!

ارتعدتُ من شدّة الغضب، تحت وطأة أطنان الحِمَم التي تثور بداخلي، يبدو أن بُركان الصبر قد ملّ الخمود .. فجأة! أغلقتُ الهاتِف

بغضب، وألقيثه بجواري على الفراش، فكّرتُ في كتم فمي بالوسادة والصراخ .. لكِنها أشياء لا تحدُث إلا في الأفلام فحسب.

والكارِثة .. أنه ليس فيلمًا! بل هي حقيقة! وحقيقة مؤلِمة!

بدأتُ أفكّر في الأمر، ووجدتُ أنه من الأفضَل أن أذهَب لكريم بيه، طلبًا لمُساعدته في أمرَين؛ أولهما العثور على طريقةٍ لإزالة هذا المنشور اللعين؛ وثانيهما التعلُّم.

سأطلُب منه بشكلٍ رسمي، وبمُنتهى الصراحة والوضوح، أن يُعلّمني كيف أكون مثلَه، كيف أتحدّث بطريقةٍ لائِقة، وكيف أرتدي ملابِس لائِقة، وكيف أتعرّف على أشخاصٍ لائِقين!

كيف أتعرّف إلى الفتيات، وكيف أصادِقهنّ، وأتحدّث معهُن بـ (عشم) وحميميّة، مثله تمامًا!

ارتديتُ ملابسي على عجل، وصفّفتُ شعري، لففتُ وشاحي الأحمر حول عُنقي، وتنفّستُ بعُمق، زفرتُ بشدّة مُحاولًا التخلُّص من الضيق الذي تمكّن منّي، والتفّ حول عُنقي حتى كاد يخنقني.

فتحتُ الباب، لكِنني لم أخرُج!

لأنني وجدتُ من ينتظِرني بالخارِج، وعلى وجهه .. أعتى أمارات القلق!

(١٦)

«اتأخّرت النهاردة، قلقت عليك وقُلت آجي أتطمّن!»

نظرت له بدهشة، وقُلت بصوتٍ خافت: «أنا .. أنا تمام، خير يا أستاذ حُسام؟ فيه إيه؟»

حُسام كامِل، المُمثّل الشهير الذي هجرَتْه أضواء النجومية، لكِنه أبى نسيانها. وقف أمامي، على باب غُرفتي الصغيرة المتواضِعة، وعلامات القلق تبدو على وجهه؛ واضِحة جليّة. لكِنه بالطبع ليس قلقًا عليّ كما حاول أن يدّعي، فأمثالهم لا يقلقون على أمثالي! بل لا يهتمُّون حتى بنا أو بمشاعِرنا.

تأمّلني بدهشة وقال: «مالك؟»

حاولتُ التماشك قليلًا وأنا أكذِب قائِلًا: «مالي؟»

«شكلَك مش مظبّط النهاردة! فيك إيه؟»

أخذتُ نفسًا عميقًا، وأجبتُه بمزيدٍ من التماشك الزائِف: «أنا زي الفُل، منمتِش كويِّس بس».

ابتسم وربّت على كتفي برفقٍ وهو يقول: «لأ، إجمَد كدا يا بطل، دا إنت الـ Hero بتاعنا».

ابتسمتُ له في مُجاملةٍ سطحيّة، وأنا أجيبه: «الله يسترّك يا أستاذ حُسام». ثُم انتبهتُ إلى أننا نقِف على باب الغُرفة ونتحدّث، لذا سألته: «أنا آسف، حقّك عليّا، تعالى اتفضّل نتكلّم جوا».

مال بجسده قليلًا، ونظر إلى غُرفتي – المفتوح بابها – للحظة،

قبل أن يقول بحرج: «الله يكرمك، لأ .. أنا عايز أتمشّى شويّة، تتمشّي معايا؟»

قالها بصيغة سؤال، لكِنه لم يكُن سؤالًا حقًّا، لأنه بدأ يتحرّك دون أن ينتظِر ردّي، وهذا رد فعل منطِقي، ما الذي سيدفع بيه مثله لدخول غُرفة صغيرة تفوح منها رائِحة الفقر وضيق الحال مثل غُرفتي؟

أغلقتُ باب غُرفتي على عجَل، وتبِعته بخطواتٍ سريعة، حتى لحقتُ به، وعندما أصبحتُ بجواره، بطأتُ من سُرعتي قليلًا، حتى لا أسبِقه فيُضطر لمُجاراتي.

سِرنا في صمتٍ لدقيقة أو ما شابه، قبل أن يقول: «فيه حاجة عايزك تشوفها».

سألته بدهشة، دون أن أنجَح في إخفاء فضولي: «حاجة؟ حاجة إيه؟»

نَظَر لي للحظة، قبل أن يقول: «هوريك الأوّل وبعدين أشرَح لك».

وأخرَج هاتِفه من جيبه، وببضع ضغطاتٍ سريعة على شاشته، فتح مقطَع فيديو، يبدو أنه مُصوّر ليلًا، في الخفاء، ودون إضاءة جيّدة، وبيدٍ غير خبيرة.

ضغط زرّ التشغيل، وتركني أشاهِده في صمت.

***

رجُل نحيل يقِف وسط الظلام، أمام البحر، مُتحدّيًا الظلام الدامِس

والهواء البارِد، لا يبدو عابئًا بالريح التي تدفعه حتى تكاد تُحرّكه من مكانه، أو بالظلام الذي يكتنِفه وكأنه كفن مُظلِم، أو بالبحر العالي الأمواج الذي يُهدّد بابتعاده.

لا يتحرّك من مكانه، وكأن رياح الكون غير قادِرة على تحريكه من مكانه قيد أنملة.

لا تهتزّ منه شعره، وكأن ظلام العالم غير قادِر على إثارة ذرّةٍ من الخوف في قلبه.

لا يرمش له جفن، وكأن اتّساع بحار ومُحيطات العالم غير قادِرة على إصابته بالتردُّد ولو للحظة.

يقِف مُباشرة أمام ضهر الحوت، ينظُر إليه للحظاتٍ طويلة، وكأنه يبحث عن شيءٍ .. شيء كان يُزيّن ضهر الحوت، قبل أن يختفي في ظروفٍ غامضة، ودون أن يترُك أثرًا.

شيء رُبما .. رُبما تركه هو هُناك بيدَيه قبل أن يختفي!

طالت اللحظات، وطال وقوفه، وصمته، وثباته .. وقصرت حركته، وتوتُّره، وارتعاداته.

فجأة .. التفَت ونظر إلى الكاميرا مُباشرةً .. اهتزّت الكاميرا في يدِ المصوِّر وهو يختبئ ويُعدّل من وضعه ليُخفي نفسه عن أعيُن الرجُل النحيل، الذي رغم الظلام، ورداءة التصوير، بدا وكأنه يبتسِم.

***

نظرتُ إليه وسألته: «هو دا .. ؟»

أجابني: «هو .. الراجِل الغامِض اللي في الشاليه البعيد».

«أستاذ خليل؟»

«هو اسمه خليل؟»

«حضرتك متعرفش؟»

«هعرف منين يا سعيد؟ ما هو قافِل على نفسه ومش بيتعامِل مع حد، غير العيال الديليفريّة وبس؟»

«هو اسمه خليل حاتِم، بس معرفش عنه أي حاجة».

«طيّب قولّي .. مفيش حاجة لفتِت نظرك في الفيديو؟»

فكّرت للحظةٍ قصيرة قبل أن أجيبه: «ضهر الحوت!»

ابتسم وقال: «الله يفتّح عليك .. ظهر الحوت! تفتكِر ضُدفة بعد ظهور الجُثّة بكام يوم، يخرُج من عُزلته .. ويروح يِقَف في نفس المكان اللي كانِت فيه الجُثة؟»

أجبته بقليلٍ من التردُّد: «يمكِن ضُدفة يا أستاذ حُسام، مين عارِف؟»

قال بغضب: «يا ابني ضُدفة إيه؟ دي لو اتحطّت في فيلم بالضُدفة محدّش هيصدقها». صمت للحظة ثُم أضاف: «مفيش حاجة بتحصَل في الكون ضُدفة يا سعيد، كُله متقدّر ومكتوب .. ولو عندك شك في دا تبقى لا مؤاخذة يعني .. ».

«عبيط».

«مش قصدي لا سمح الله لأ».

«بس حضرتك عندك حق! هي مش ضدفة! أصل الراجِل دا بقاله فوق السنة هِنا .. إشمعنى الليلة دي تحديدًا يخرُج ويُقف على البحر؟ وفي جوّ زي دا؟ وفي مكان زي دا؟»

لمعَت عيناه في حماس وهو يقول: «صح؟»

هززتُ كتفيّ وأنا أقول: «عند حضرتك حق».

نظر إليّ وقال: «قولّي .. مفيش حاجة جديدة عن موضوع القتيل؟»

أجبته: «لأ، لسّه مش عارفين حاجة».

لم أُخبِره بالتفاصيل الجديدة، لا أريد حرق كُل التفاصيل، لا أريد تحذير القاتِل لو كان لا يزال موجودًا بين أسوار قريتنا الحبيبة. لذا اكتفيتُ بإجابتي المُقتضَبة، محاولًا ستر بقية أسرار الجريمة التي اكتشفناها أنا وكريم بيه.

نظر للبحر للحظة قبل أن يسألني: «تفتكر البحر بلَعه؟»

أجبته: «يمكِن .. ليه لأ!» ثم سألته: «هو حضرتك تفتكِر إنه أصلًا مات في حتّة تانية والبحر جابه هنا وبلعه تاني؟»

فكّر للحظة، قبل أن يقول: «أعتقِد لأ، دي فكرة بعيدة شويّة، يعني أنا أصدّق إن المية بلعته .. مقبولة شوية، لكِن جابته .. وبعدين بلعته؟ في ساعة زمن؟ لأ .. بعيدة شوية دي».

غرقتُ في أفكاري وأنا أقول: «عند حضرتك حق».

أومأ برأسه للهاتِف، الذي لا أزال أُمسِكه بين أصابعي، وسألني: «بس بقولّك إيه؟ إيه رأيك في التصوير؟ لسّه جامِد زي ما أنا .. صح؟»

تذكّرت الكادرات المعووجة، واليد المُرتعِدة التي تحمِل الهاتِف، سوء الإضاءة، وارتفاع صوت أنفاسه المُزعِج الذي سيؤذي أُذنَي كُل من سيُشاهِد الفيديو. ثُم وجدتُ أن الكذِب أحيانًا ما يكون أسهل طُرق الهروب.

لذا أجبته: «طول عمرك نجم يا أستاذنا».

ابتسم، مُعتدًّا بنفسه، قبل أن يقول وقد شابَ كلِماته بعض الغرور: «تعرَف زمان، كُنت بختار حتى زوايا التصوير في أفلامي، دا اللي خلّى أفلامي كُلها تنجَح كدا على فكرة». صمت للحظة، رحل فيها الغرور، وحلّت المرارة محلّه، وهو يستكمِل حديثه: «لحَد ما ابن الحرام دفع فلوس للجرايد والنُقّاد يقولوا إني بتدخّل في كُل كبيرة وصُغيّرة في الأفلام، وإني ديكتاتور في شُغلي، ودا اللي خلّى الناس تهرَب مني».

صمت للحظة ونظر أرضًا، قبل أن يقول: «تعرَف .. أنا لسّه عندي كتير، جوايا أفكار وإيفّيهات وحبكات، وطاقة تشغّل عشر مُخرجين .. بس زي ما انت عارِف بقى، أجري بقى عالي عليهم».

ابتسمتُ مُجامِلًا، وقُلت: «حضرتك هتقولّي؟ ما أنا عارِف».

ربّت على كتفي وقال: «جدع ياض يا سعيد».

مدّ يدَه ليُمسِك بهاتِفه، كدتُ أعطيه له، قبل أن أتردّد للحظة،

وأسأله: «هو أنا مُمكِن أشوف الفيديو مرّة كمان بعد إذنك يا أستاذنا؟»

ابتسم وقال مازحًا: «ماشي يا سيدي، على الله نخلص».

رفعتُ الهاتِف أمامي، ومددتُ يدي لأضغَط زرّ التشغيل، لكِنني – وعن طريق الخطأ – حرّكت إصبعي على الشاشة، فاختفى الفيديو، وظهر أمامي الفيديو التالي.

تأمّلته للحظة، غير مُصدّق لما أراه، وبصعوبة .. استطعتُ تحريك عيني عن شاشة الهاتِف، نظرتُ إليه للحظة، ورأيتُ الارتباك يظهَر جليًا على وجهه، وهو يمدّ يدَه ليستعيد هاتِفه، الذي أبعدتُه عنه.

وسألته بحزم: «إيه دا؟»

(١٧)

أمام عيني، ظَهَر مقطَع فيديو آخر، لكِنه مُختلِف تمامًا .. في كُل شيء! فجودة التصوير أعلى، والكاميرا أقرَب، والإضاءة أفضَل.. لكِن الأهم، أن أبطال هذا المقطَع مُختلِفون تمامًا!

فأمام عيني، وقفتُ أنا ومِس مريم وكريم بيه. حاول الأستاذ حُسام الإمساك بهاتِفه مرّة أخرى، وبدا مُرتبكًا بشدّة، أبعدتُ الهاتِف عنه وسألته بغضبٍ امتزج ببعض الدهشة: «إنت بتصوّرنا؟»

قال بارتباك: «لأ، هو أنا .. استنى .. هفهّمَك .. ».

صحتُ فيه بصوتٍ عال: «هتفهّمني إيه؟»

ويبدو أن صيحَتي أفاقته من ارتباكه للحظة، أدرَك فيها أنه مُمثِّل شهير، وأنني مُجرّد فرد أمن (غلبان)، فسألني مُستنكِرًا بغضب: «إنت هتزعقلي يلا ولا إيه؟»

ويبدو أيضًا أن صراخَه أفاقني من غضبي للحظة، فارتبكتُ بدوري وقُلت: «لا عشت ولا كُنت يا أستاذ حُسام! بس حضرتك عايزني أعمِل إيه يعني لمّا ألاقيك مصوّرني من غير ما آخُد بالي بالشكل داه؟»

قال بغضبٍ وهو يُحاوِل الوصول لهاتِفه مُجددًا: «وأنا هصوّرك إنت ليه يا جربان إنت؟»

اتّسَعَت عيناي في دهشة وأنا أقول: «يعني إيه؟ يعني حضرتك بتصوّر ميس مريَم؟ حضرتك بتصوّر البنات؟ دي آخر حاجة كُنت

أتوقّعها منّك يا أستاذ حُسام!»

خطف هاتِفه من يدي وهو يقول: «بنات إيه اللي هصوّرهم يا بني آدم إنت! إدّيني فُرصة أفهّمَك، اسكُت شوية وسيبني أتكلّم .. جتك البلا!»

قُلت له بقليلٍ من التحدّي: «اتفضّل .. أنا سامعك».

رفع الهاتِف أمامي، وضغط زرّ التشغيل، وهكذا بدأ مقطَع الفيديو، وميّزت الحدث من فوري، ففي نهاية المطاف، لقد كُنتُ هُناك! أسَرّت عدسة الكاميرا لحظة مُكالَمة كريم بيه مع شيمو، عندما أخبرتنا بتلك (النمّة) عن ميري وشيري، وأخبرتنا بمشاكِل كيكي مع زوجها الراجِل.

لماذا لا يمتلِك أولئِك البشر أسماء عادية؟ أين ذهب كُل الـ (محمد) والـ (أحمد) والـ (سيّد) الذي عجّت بهم شوارِع مصرنا الحبيبة يومًا؟ متى تحوّلنا إلى كيكي وشيري وكراميلا وكوكي وكُل هذا الهراء؟

وإن حاولتُ التشبُّه بهم يومًا، كما أنوي، هل سأكتفي بتغيير بعض الأشياء في مظهري وطريقة تحدُّثي فقط، أم سينبغي عليّ تقلُّد مثل هذه الألقاب، وبصفتي (سعيد) .. هل سأتحوّل إلى سوسو أو ساسو؟ وماذا سيفعل أهلي عندما يكتشِفون أن ابنهم سعيد قد تحوّل إلى ساسو؟ وهل ستقبَل ليلى التعرُّف عليّ بصفتي ساسو؟ وماذا عن جدّي الأكبر؟ اللوا؟ هل سيقبَل أن يحمِل حفيده لقب ساسو؟ ساسو اللوا؟

«إنت يا ابني؟»

أفقتُ من أوهامي على صوته يزجُرني لأن مقطَع الفيديو انتهى،

وأنا لا أزال أحدّق في شاشة هاتِفه كالأبله، تأمّلتُ انعكاسي في شاشة الهاتِف للحظة، قبل أن يسألني: «فهمت حاجة؟»

والمصحف لأ.

سألته: «حاجة إيه؟»

أجابني في استنكار: «من اللي قُلته! إنت مكُنتِش مركّز معايا أصلًا؟»

أجبته: «لأ، كُنت سامع حضرتك، بس مُمكِن تقول تاني عشان أفهَم أكتر؟»

نظر لي لوهلةٍ قبل أن يُقرّر أنه لا بأس من تكرار ما قال، لذا أخذ نفسًا عميقًا وقال: «أنا مُشكِلتي مش معاك، ولا مع مريم .. لأ، بصراحة عندي مُشكِلة مع مريم، بس لكُل حدثٍ حديث، خلّيني في المُشكِلة الأساسيّة دلوقتي، أنا مُشكِلتي الكبيرة مع كريم».

سألته بدهشة: «كريم بيه؟ ماله؟ دا راجِل زي الشّكّر!»

رفع حاجبَيه في استنكار، وسألني: «وأنا يعني اللي مُفتري؟»

أجبته بقليلٍ من الارتباك: «لأ، لا سمح الله، مش قصدي أكيد، طيّب كمّل .. أنا سامعك».

تأمّلني للحظة، ثُم أكمَل حديثه قائِلًا: «هو راجِل زي القُل وكُل حاجة، بس بيستغِل الصُدفة والقدَر اللي جمعنا في قرية واحدة، إني أنا وهو مُلّاك في نفس القرية، وبيستغِل دا عشان يشقُط بنات ويوطّد علاقته بيهم على حِسابي».

انعقدَ حاجبايَ في دهشة وسألته: «إزاي يعني؟»

رمقني باشمئزازٍ لدهشة، وقال: «شكلَك غبي وهتتعِبني معاك». ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال: «دلوقتي هو لمّا بيكلِّم أي بِنت بيقولّها إنه صاحبي، ودي مش حقيقة، إحنا يدوب جيران في القرية مش أكتَر. والبنات الكتير اللي بيقعُد يكلِّمهُم طول الوقت دول من المُعجبات بتوعي، بس هو سرقهم منّي، وبيكلِّمهم على حِسّ إنه صاحبي بقى وبتاع».

شعرتُ بالقليل من الضباب يخنِق فهمي، فسألته في غباء: «يعني دول كانوا بيكلِّموا حضرتك وهو خدهُم منّك؟»

نفخ صدره في زهوٍ زائِف، وقال بغرور: «لأ، دول يدوب يحلَموا يكلِّموني، إنما الوصول ليّا بيفضَّل حلم عند الناس دي، مش أي حدّ يقدَر يوصلّي ويكلِّمني يعني».

أجبتُه بالطريقة التى تليق بغروره وتُرضيه: «أكيد، هو حضرتك أى حدّ برضُه؟»

ابتسم وتابع حديثه: «يعني لولايا .. مكانش وصل للبنات دول وكلِّمهُم أصلًا. أنا السبب في كُل عِلاقاته وكُل صداقاته دي، الراجِل دا باني دايرة علاقاته كُلها على معرفته بيّا .. بس!»

راودتني فكرة، لكِنني ترَدّدتُ للحظة في الإفصاح عنها، ويبدو أنه تمتّع بالذكاء الكافي لي ليُدرِك أن هُناك ما يعتمِل بداخلي، لذا رفع أحد حاجبَيه وسألني: «عايز تقول إيه؟»

اعتراني المزيد من التردُّد، لذا ابتلعتُ فكرتي، وقرّرت وأدَها في

مهدها، لكِنه صاح بلهجةٍ آمرة: «اخلَص!»

حسمتُ أمري، وعَرَفتُ أنه لا فرار من قبضة فضوله، لذا أخذتُ دقيقة رتَّبتُ فيها أفكاري، ثُم قُلت: «سامحني يعني، بس هو مضربهُمش على إيدهُم، يعني اللي مش عايزة تكلِّمه منهُم مش هتكلِّمه، ولا حضرتك شايِف إيه؟»

ابتسم، وهو ردُّ فعلٍ لم أتوقَّعه منه، وقال بهدوء: «عندك حق، بس خط في اعتبارك شيء مُهِم .. البنات دي مكانِتش هتكلِّمه لولا شايفين إنه طريق للوصول ليّا، يعني من الآخر .. هو مش أكتر من سلَّمَة! وقولّي إنت بقى .. مين أهم وأغلى؟ الشقَّة ولا السلِّم؟»

لم أفهَم المَغزى من سؤاله، هل يقصِد أنه شقَّة؟ وأن كريم بيه هو السلِّم؟ يعني *إيه*؟ ماذا يقصِد؟ ما الهدف من هذا التشبيه العجيب؟

أجبته: «فهمت قصد حضرتك آه».

لكِنني لم أفهَم قصد حضرته للأسف! بل أردتُ إسكاته قبل أن يُمطِرني بالمزيد من تلك التشبيهات المليئة بالعُمق الزائِف، ويبدو أنني نجحتُ في إقناعه بذلِك لأنه قال: «دا طبعًا غير إنه عشان يقنعهم بالكلام الفاضي بتاعُه دا بيضطَرّ يقولهم أسرار من أسراري الشخصيّة».

لم أفهَم قصده، انعقد حاجباي مرّة أخرى، هل أنا غبي؟ أم أنه يُعاني من صعوبات في تفسير مقصده؟

سألته: «وهو عرف أسرار حضرتك الشخصيّة منين؟»

نظر لي بجديّة شديدة وقال: «هو دا تحديدًا اللي كُنت جايلك

عشانه».

سألته: «يعني حضرتك مكُنتش جاي عشان موضوع أُستاذ خليل؟»

سألني بدهشة: «خليل مين؟» ثُم بدا وكأنه تذكّره، فقال: «آه، لأ ما عشان كدا برضُه».

هززتُ رأسي، هذا رجُل لا يعرِف شيئًا، تتصارَع العديد من أفكاره في رأسه كأنها لعبة السيّارات المُتصادِمة الموجودة في كُل الملاهي الشهيرة، فكّرتُ في سؤاله عن أي شيء، لكِنني قررتُ الالتزام بالصمت، وتركه يستكمِل حديثه العشوائي المليء بالاتهامات والبارانويا والزيف والتظاهُر بالعُمق!

تلفّت حوله وكأنه يطمئِن إلى أننا غير مُراقَبين، قبل أن يقول بهمس: «من كام سنة، فيه ناشِر مُهِم في البلد، كلّمني عشان ينشُر مُذكّراتي، إنت عارِف يا واد يا سعيد إني غيّرت مسار السينما في مصر، ودي تجربة مُهِمّة عشان الأجيال الجاية تعرَف أهميّة السينما وإزاي مُمكِن حدّ واحِد عبقري زيي يغيّر مسار صِناعة مُهِمة زي السينما. وفعلًا كتبت المُذكّرات دي، وكتبت فيها أسرار كتير بتفضَح ناس مُهمّين وثُقال في البلد، وخلاص كُنت على وشك أبعتها للناشِر، بس فيه مُشكِلة واحدة بس!»

سألته بفضول: «مُشكِلة إيه؟»

أخذ نفسًا عميقًا، ثُم قال: «مُذكّراتي اتسرقِت، واللي سرقها حدّ من اتنين، يا كريم بيه بتاعك دا .. عشان يستخدِم أسراري في التعرُّف على بنات أكتر .. يا مريم المُمرِّضة .. عشان تبتزّني وتطلُب مني

فلوس».

رمقتْه بدهشة، أحاول العثور على كلِمات مُناسِبة لأقولها، لكِن قبل أن أجِدها، قال: «ومفيش قُدامي غيرك، يا هتعرَف مين اللي سرق المُذكِّرات وترجّعهالي .. يا هبلَّغ الشُرطة، وأعتقِد مش من مصلحتك لا إنت ولا مُديرك إن الشُرطة تيجي القرية في وقت زي دا». صمت للحظة، ثُم سألني بلهجةٍ ذات مَغزى: «فاهمني طبعًا؟»

المُشكِلة .. أنني كُنتُ أفهمه!

جيِّدًا!

(١٨)

ألقى بحجَر تهديدِه في بركة هدوئي الراكِدة، ثُم تركني ورحل بعدما أثار بداخلي الكثير من المشاعِر، تركني حائِرًا بين الذهاب إلى المِستر خالِد وطلب نصيحته، لكِنني سأُخاطِر بإثارة المزيد من الأسئِلة حول ما كُنتُ أفعله عند كريم بيه؟ وبالتالي سأُخبِره أنني لا أزال أُحقِّق في جريمة القتل الغامِضة التي حدثَت في القرية، والتي أشتبِه فيه بارتكابها، ولو صدق حدسي .. وكان هو القاتِل .. فرُبما أكون ضحيّتَه التالية.

ورُبما أنجَح في خداعه، ولا يُدرِك حقيقة ما أفعله سرًّا بجانِب عملي كفرد أمن في القرية، وبالتالي سينصحني نفس النصيحة التي نصحني إيّاها حين اشتبه أستاذ حُسام في سرقة حسن لبعض المال منه، أن أتماشى معه وأتظاهَر بالتحقيق في الأمر حتى يمِلّ من هذه القضيّة، ويبدأ في الشك أن شخصٍ آخر قد سرق منه شيئًا آخر.

قرّرتُ الاكتفاء بالحل الثاني، سأتظاهَر بالتحقيق في سرقة مُذكّراته حتى يمِلّ ويتظاهَر بأن شيئًا آخر سُرِق منه، وشرعان ما سيحلُّ الصيف وتمتلئ القرية بالمُصطافين، وسينسى تلك الخيالات وينخرِط في الاستمتاع بصيفه مع بقيّتهم، وعندما يحلّ الشِتاء القادِم (يحلّها الحلّال)!

حسنًا، هذه فكرة عبقريّة ولا بأس بها.

كُنت في طريقي إلى شاليه كريم بيه، الذي يقبَع على أطراف القرية، عندما لمحتُ خليل حاتِم، الغريب الأطوار، وهو يخرُج من

شاليهه، يُمسِك في يده بكيسٍ من الخيش، ويُسرِع لإلقائه في صندوق القِمامة.

شيء طبيعي، ومُعتاد، ويحدُث كُل يوم.

صحيح؟ لا!

لأنه تجاهَل صندوق القِمامة الصغير الموجود أمام شاليهه، وخرج من الشاليه متجاوزًا إيّاي دون أن يُعيرني انتباهًا، وكأنني شفّاف لا أعنيه، وهو شيء مُعتاد منه، إذ يبدو مُنعزِلًا لا يُحِب الاختلاط أو التعامُل مع البشر، ليس الفُقراء منهم، بل كُلهم بجميع أطيافهم وأنواعهم ودرجاتهم وطبقاتهم.

بمُجرّد مرورهِ بجواري، شعرتُ بشيءٍ غامض، تحرّكَت حاستي الأمنيّة، وشعرتُ بأن هُناك ما يُخفيه.

وهكذا قرّرتُ أن أتبعه دون أن ينتبِه لي، سلكتُ طريقًا مُختلِفًا، بحيث لا يغيب عن عيني، وفي نفس الوقت .. لو انتبه لي، سأتظاهَر بأنني سأذهَب إلى مكانٍ آخر، دون أن يُدرِك ما يحدُث.

وبالفعل، سار بخطواتٍ سريعة حتى وَصَل إلى صندوق قمامة عمومي، وقف أمامه للحظة، ثُم تلفّت حوله وكأنه يتأكّد أن أحدًا لم يتبَعه، وألقى بكيسه الخيشي في صندوق القِمامة المعدني، وتلفّت حوله مرّةً أخرى، دون أن ينتبِه لي، وعاد بخطواتٍ سريعة إلى شاليهه.

تحرّكتُ من مكاني، بعدما تأكّدتُ أنه قطع مسافةً لا بأس بها إلى هُناك، وذهبتُ إلى صندوق القمامة، سددتُ أنفي بسبب الرائِحة

الكريهة المُنبعِثة من هذا الصندوق، رغم قلّة المُلقيات بداخِله، يبدو أنه بحاجةٍ إلى النظافة، مثل كثيرٍ من نفوس البشر هذه الأيام.

مددتُ يدي، مُتغلّبًا على اشمئزازي، وأمسكتُ بالكيس الخيشي، وبمُجرّد أن أدرتُه رأيتُ شيئًا جعلني أتجمّد في مكاني، بُقعة دِماء .. تبدو طازجة .. تُلوّث هذا الكيس!

لم أستطِع التحرُّك من مكاني قيد أنملة، أو حتى فَهم ما يحدُث، وشعرتُ بالدّماء تتجمّد في عروقي، ابتلعتُ ريقي بصعوبة، ومددتُ يدي، مُتجاهلًا الرعدة الخفيفة التي اعترَت يدي، وفككتُ وثاق الكيس.

ألقيتُ محتوياته داخِل صندوق القمامة، تأمّلتها لدهشة، غير قادِر على فهم ما رأيته.

كِتاب قديم، أوراقه صفراء مُهترِئة، وغلافه سميك من الجلد الأسود. وشموع غريبة الشكل. وقطعة قُماش بيضاء كبيرة ملوّثة بالدّماء، وهي السبب في تلوُّث الكيس الخيشي بتلك الدّماء التي رأيتُها.

فكّرتُ للحظة، لكِنني لم أفهَم شيئًا، لذا جمعتُ الحاجيات في الكيس الخيشي مرّة أخرى، وقرّرتُ وضعها في غُرفتي بشكلٍ مؤقّتٍ لحين التوصُّل لشيءٍ يُمكِنني فعله بخصوص هذه الأشياء.

أحكمتُ إغلاق الكيس، وعُدتُ به إلى غُرفتي. أحكمتُ إغلاق الباب خلفي، وفردتُ محتويات الكيس على منضدةٍ صغيرة، وبدأتُ في تفحُّصها بشكلٍ أكبر.

الكِتاب لا جديدَ فيه، يبدو كما رأيته، باستثناء غلافه الأسود الذي بدا لي مصنوعًا من جلدٍ غريبٍ من نوعٍ ما، قرّبته من أنفي وشممته، مممم .. رائِحته عادية، لكِنها ليسَت رائِحة الكُتب المُعتادة أبدًا.

أما الشموع، فكانَت مُختلِفة .. تمامًا!

فبمُجرّد أن أمسكتُها، حتى تجعّد أنفي، فرائِحةٌ كريهة فاحت منها، تبدو أشبه برائِحة .. برائِحة الموت، كما أنها تبدو لزِجة نوعًا ما، تركتها في مكانها وأنا أنظُر لها باشمئزازٍ غير طبيعي. أما قطعة القُماش البيضاء الملوّثة بالدّماء فكانَت نظيفةً يومًا ما، قبل أن يُرسَم عليها نجمة عجيبة الشكل، تُزيّنها حروف غريبة، وبداخلها قطعة قُماش أخرى ملوّثة بالدّماء، تبدو وكأنها قد استُخدِمَت لكتم نزيف جرحٍ ما.

هل .. هل هذا سحر؟ عَمَل؟ ألقيتُ بالقُماش على الطاوِلة وتراجعتُ خطوةً للخلف، قبل أن أتمالَك شتات نفسي، وأجمَع الموجودات في كيسها مرّة أخرى، ترددتُ للحظةٍ قبل أن أُمسِك بقطعة القُماش المنقوعة في الدّماء بأطراف أصابعي وأُعيدها إلى الكيس.

تركتُ كُلّ شيءٍ على الطاوِلة، وقرّرتُ الخروج لاستكمال رحلتي إلى شاليه كريم بيه، بحثًا عن إجابتي المفقودة، وبالفعل .. كُنت في مُنتصف رحلتي إلى هُناك، عندما سَمِعت مِس مريم، المُمرّضة الجميلة، تصرُخ بهلع: «إزاي تتهجّم عليّا بالشكل دا؟»

ومن فوري .. هرعتُ إلى هُناك دونما تفكيرا

(١٩)

قادتني قدماي إلى مصدَر الصوت دونما تفكير، لم أُعرِف أين أذهَب أو ما الذي يحدُث، كُل ما فهمته أن هُناك من يُحاوِل التهجُم على مِس مريم، بطريقةٍ دفعَتها للصراخ بمثل هذه الطريقة.

ما الذي يحدُث في قرية ضهر الحوت؟ ما الذي أصاب قريتنا الهادِئة هذه الأيام؟ إنها لعنة القتل .. لعنة الغدر .. لعنة الخيانة! أم تُراها لعنة طلوع الروح؟ قالَت لي جدّتي يومًا أن الروح لو طلعت في مكان، يظلُّ منقوعًا في الحُزن والهمّ لحين مُغادرة الروح منه.

وعندما سألتها: «وإزاي تُغادره الروح يا ستّي؟»

لمعت عيناها وقالَت: «لمّا السبب ينزال، لو ميّت غدر .. يبان الحق، ولو ميّت سِر .. ينكشف، ولو ميّت مظلوم .. ياخد حقُّه».

زيما هذا ما حدث هُنا، زيما تأبى روح الدكتور النفسي مُغادرتنا دون إثارة العديد من المشاكِل، ريثما تُحل قضيّته، لكِن هل يعني هذا أن الروح مُعلّقة في عُنقي؟ وأن عليّ حل القضيّة وإلا ظلّت تُثير المشاكِل والمتاعِب هُنا؟

وصلتُ إلى شاليه مدام شاهيناز، ورأيتُ الأستاذ حُسام يقِف أمام مِس مريم، التي تقِف أمامه بشجاعةٍ رغم الخوف الذي يسكُن عينَيها، وتُحاوِل منعه من اقتحام الشاليه، بينما يتقمّص هو روح خرتيت غاضِب ويُصِرُّ على الدخول مهما كلّفه الأمر.

اقتربتُ منهُما، ولمحتُ شيئًا يتغيّر في عينَيها بمُجرّد رؤيتي، لكِنني لم أحظَ بالوقت الكافي لأتبيّن ماهيته، أهو ارتياح لرؤيتي؟ أم قلق

عارمٍ لوجودي؟

وقفت بينهما، ورأيت أسارير أستاذ حُسام تتهلّل لرؤيتي، الذي قال بحماسٍ لم يفتر: «كويّس إنّك جيت يا سعيد!»

اتّسعَت عيني مِس مريم عندما شعرَت لوهلةٍ أنني في صفّه. ثم انتصر التحدّي على معركة المشاعِر التي دارَت في عينيها، وأعلن وجوده الآن، إذ رمقتني بنظرةٍ نارية، وهي تقول: «آه، كويّس إنّك جيت يا سعيد!»

وهكذا، وجدتُ نفسي بين نارَين، أو حُلوَين .. أحلاهُما مُرا

سُرعان ما وجدتُ الحل، وسألتهما: «لحظة واحدة، إيه اللي بيحصَل؟»

بدآ يتحدّثان معًا، في آنٍ واحِد، فلم أتمكّن من تمييز كلِمة ممّا قيل، لذا أشرتُ لهما بالتوقُّف، لكِن حماسهما واندفاعهما كان أقوى وأشدّ من إشارتي، لذا لم يتوقّفا، لذا صرختُ بصوتٍ عالٍ: «لحظة واحدة».

صمتا ونظرا لي، مِس مريم بدهشة، وأستاذ حُسام بغضب. اضطررتُ للتدخُّل قائِلًا: «إيه اللي بيحصَل؟» وقبل أن ينبس أحدهما ببنت شفة، أضفت: «ومعلِش، بعد إذنك يا أستاذ حُسام، خلّي مريم تتكلّم الأول».

رمقني بغضب، لكِنه لم ينطِق بكلمة، سامِحًا لها بالتحدُّث، وهي الفُرصة التي استغلّتها من فورها، فقالَت بصوتٍ منقوعٍ في الغضب: «أنا كُنت قاعدة في حالي، براعي مدام شاهي، لقيت الباب بيخبّط بهستيريا، لدرجة إني مفهمتِش إيه اللي بيحصَل، جريت زي

المجنونة فتحت الباب، ولقيت البيه عايز يدخُل غصب عنّي! ولمّا حاولت أمنعه أو حتى أفهَم منه إيه اللي حصَل، صمّم يدخُل غصب عني، ينفع طيّب؟»

بشكلٍ لا إرادي، وجدتُ نفسي أُجيبها: «لا مينفعش».

رفع حاجبَيه بدهشة، واتّسعَت عيناه غضبًا، ثُم سألني بصوتٍ غاضب: «هو إيه اللي مينفعش؟»

ورغم التحدّي الذي ظهر جليًا في صوته، إلا أنني وجدتُ نفسي أُجيبه: «مينفعش حضرتك تدخُل بيت فيه اتنين سِتّات لوحدهم، مش أصول برضه، ولا إيه؟»

لم يكُن سؤالي الأخير سؤالًا حقيقيًا، أو حتى بلاغيًا، وإنما كان تذكيرًا بالأصول التي لا يجِب على أيّنا تجاوُزها .. مهما حدث! فنحن (*أولاد بلد*) كما يقولون، ونعرِف الصح من الغلط، لا شك في ذلِك.

ويبدو أنه فَهِم التلميح، لأنه قال: «بس أنا مش مجنون عشان أتهجّم على شاليهات الناس، أنا بس عايز حاجتي وهمشي من هِنا على طول، ويا دار ما دخلِك شر».

سألته مريم بتحدٍّ: «حاجة إيه بقى إن شاء الله؟»

وهكذا وجدتُ نفسي مُلزمًا بسؤاله: «أيوه حاجة إيه بقى إن شاء الله؟»

أجاب ببديهية: «مُذكّراتي».

وهكذا وجدتُ نفسي أيضًا مُلزمًا بإجابة سؤالها: «مُذكّر .. «. ثُم

نظرتْ إليه ببلاهة وسألته: «مُذكِّرات إيه؟»

أجابني ببديهيّة تامّة: «مُذكِّراتي اللي قُلتلك إنها اتسرقِت».

سألته مريم بغضبٍ شديد: «مُذكِّرات إيه اللي اتسرقِت؟ ومين هيسرَق مُذكِّراتك هنا؟ أنا ولا السِّت الغلبانة اللي جوا دي؟»

قال بغضبٍ مُماثِل: «السِت المشلولة؟ ليه وأنا عبيط؟ إنتِ أكيد اللي سرقتيها!»

اتّسعَت عيناها بشدّة، ورأيتُ نيران الغضب تتأجّج بداخلها وهي تصرُخ: «وهسرقك ليه يا بني آدم؟ هعمِل إيه بمُذكِّراتك أصلًا؟ إنت فاكِر نفسك مين؟»

اندفع نحوَها، حتى اضطُرِرتُ لمنعه بيدي برفقٍ وهو يصرُخ: «هتسرقيني عشان تدّي المُذكِّرات لشريكك، عشان يكلِّم بيها بنات، عرفتي هتسرقيني ليه؟»

نظرَت لي لوهلة، ورأيتُ عشرات الردود في عينَيها، قبل أن تنطفئ جذوة حماسِها لاستكمال المعركة، وتُنكِّس رأسها وهي تهزُّه ببطء، قبل أن تأخُذ نفسًا عميقًا وتقول: «خُده وامشي يا سعيد لو سمحت، وفهِّمه إنه لو خبّط عليّا تاني .. هبلِّغ الشُرطة».

ودخلت الشاليه وأغلقَت الباب خلفها، لكِن قبل أن تُغلِق الباب لمحت شاهيناز هانِم خلفها، على كُرسيها المُتحرِّك، تنظُر لي بعينَين واسعتَين، مليئتَين بالفزع، وتهزُّ رأسها .. مسكينة، خافَت من هجوم هذا الرجُل المخبول، الذي أصابه انحسار الشُهرة بالجنون المؤقّت.

تأمّل الباب المُغلق للحظة، ثم قال: «شُفت .. عشان تصدّقني!»

أمسكته من مرفقه، فسار معي دونما مُقاوَمة، ابتعدنا عن الشاليه قليلًا، سألته برفق: «ينفع كدا؟»

أجابني: «هي اللي سرقتني، أنا مُتأكِّد».

سألته: «وعرفت منين؟»

أجابني: «شُفتها راجعة من شوية من الناحية دي، ناحية شاليه كريم، أكيد كانوا بيتْفقوا عليّا».

ابتلعتُ ريقي بصعوبة، عجبًا .. تبدو مُهِمة انتقاء الكلِمات المُناسِبة صعبة للغاية في مواقِف كهذه، لكِنه أمر ضروري، لذا قُلت: «مينفعش نتْهِم الناس بحاجات زي دي من غير دليل يا أستاذ حُسام».

قال: «بس أنا .. ».

قاطعته قائِلًا: «حضرتك دا مش دليل، مُمكِن تكون كانِت في ألف مكان أصلًا غير شاليه كريم بيه، وحتى لو كانِت عنده .. دا مش معناه إنها سرقتك، مُمكِن كانِت بتزوره أو بتطلُب مُساعدته في أي حاجة».

رفع حاجبَيه بدهشة وسألني: «حاجة زي إيه؟ وليه مطلبِتهاش منّك؟»

سؤال وجيه من شخص مجنون!

أجبتُه: «يمكِن راحِت تشرَب معاه شاي ولا حاجة».

قال: «وسابِت الستّ المشلولة لوحدها؟ من غير لا أدوية ولا حاجة؟»

أجبته: «يمكِن كانِت نايمة!»

لم يقتنِع بإجابتي، التي لم أقتنِع بها بدوري، وإنما أجبتُه بها (سد خانة) لا أكثر!

صمت للحظة، ثم قال: «بس أنا دلوقتي بقيت شِبه مُتأكِّد إن هي اللي سارقاني، وإلا اتفضِّل فسِّر لي بقى هي مش عايزاني أدخُل الشاليه بتاعها ليه؟»

أجبتُه بقليلٍ من الجديّة: «عشان مش من حقِّك تطلُب حاجة زي كدا أصلًا يا أستاذ حُسام، وأصلًا لو هي سرقتها منِّك .. هتخليها جوا الشاليه؟ معتقِدش إنها غبيّة بالشكل دا، أكيد مخبيّاها في مكان تاني».

سألني بفضول: «تفتكر؟»

عَرَفتُ أنني قد نجحتُ في شدِّ انتباهه، لذا قُلت: «حضرتك بتثِق فيّا؟»

صمت للحظة، ورأيتُ النفي في عينَيه، لكِن لسانه كذب حين قال: «أكيد يا سعيد».

ابتسمتُ له وقُلت: «يبقى تسيبني أحقِّق في الموضوع، وأوعِدك يتحل، ثِق فيّا».

تأمّلني بشكٍّ للحظة، وقال: «هثِق فيك».

ثُم تركني ورحل نحو شاليهه دون أي كلِمة أخرى.

لكِنه لم يُدرِك أن فعلته، وإن اتَّسَمَت بالحماقة الشديدة، قد نبّهتني

لشيءٍ مُهِم .. شيء يتعلّق بكيس الخيش الذي وجدتُه في القمامة منذ قليل!

وهكذا تحرّكتُ بخطواتٍ سريعة إلى غُرفتي مزّة أخرى، وقد حسمتُ أمري!

(٢٠)

طرقتُ الباب وانتظرتُ لحظة، طالَت فنفد صبري، فطرقتُه ثانيةً حتى سَمِعتُ صوت خطوات بطيئة من خلف الباب، انتظرتُ لحظةً أخرى، وكدتُ أرفع يدي لأطرقه مرّة ثالِثة، لكِنه فُتِح.

تأمّلني للحظة، ثُم نظر إلى يدي المرفوعة، ثُم خطا خطوةً أخرى ونظر خلفي، تلفّت حوله يمينًا ويسارًا وكأنه يبحث عن شخصٍ آخر، أو شيء لم يحدُث. ثُم نظر لي مرّة أخرى وقال: «نعم؟»

ابتسمتُ نصف ابتسامة، وأنا أنظُر إليه، يرتدي الروب الخاص به، ويُغلِقه بحزامٍ بنفس اللون يلتفّ حول خصره كأناكوندا تعتصِر فريستها، وسألته: «هو حضرتك مستني حد؟»

تلفّت حوله مرّة أخرى، وبدا وكأنه ينتظِر أحدًا فعلًا، قبل أن يقول: «نعم؟»

لكِن إحقاقًا للحق، قالها بطريقةٍ مُختلِفةٍ عن سابِقتها، لكِنه ظلّ يتلفّت حولنا وكأنه ينتظِر أحدًا، وهو شيء مُوتِّر للغاية، سألته: «مُمكِن أدخُل؟»

نظر لي للحظة، طالَت حتى ظننتُ أنه لم يسمعني، وأخيرًا قال: «خير؟»

لكِن إحقاقًا للحق، قالها بطريقةٍ مُختلِفةٍ عن سابِقتها، لكِنه ظلّ يتلفّت حولنا وكأنه ينتظِر أحدًا، وهو شيء مُوتِّر للغاية، سألته: «مُمكِن أدخُل؟»

نظر لي للحظة، طالَت حتى ظننتُ أنه لم يسمعني، وأخيرًا قال: «خير؟»

يلتزِم هذا الرجُل بقاعدة خير الكلام ما قلّ ودلّ حتى الرمق الأخير!

سألته مرّة أخرى: «مُمكِن أدخُل؟ مِحتاج أتكلّم مع حضرتك شويّة».

تلفّت حوله ثانية، قبل أن يسألني: «بخصوص إيه؟»

سألته: «مش نتكلّم جوا أحسَن طيِّب؟»

نظر لي للحظة وقال: «بخصوص إيه؟ معتقِدش فيه بيننا مجال لأي كلام أصلًا!»

أخرجتُ الكيس الخيشي من خلف ظهري، ورفعتُه أمامه ليواجِهه، تأمّله للحظة، قبل أن يجذِبني من يدي للداخِل، ويخرُج برأسه من الباب مرّةً أخرى ليتلفّت حوله مُجددًا، قبل أن يدخُل ويُغلِق الباب خلفه.

إضاءة مُعتِمة، ليسَت مُظلِمة بما يكفي لتُخفي أسرار الموجودات، ولا مُضيئة لتكشِف عن ستارها، بل مُعتِمة بالدرجة الكافية لتمرَح الظلال في ثناياها.

ورائِحة مكتومة، خليط بين عدّة أشياء، خليط من قلّة النظافة والمعيشة الذكوريّة، عرق سكن بعض الملابِس القديمة حتى فاح، وعطن من عدم تهوية المكان بما يكفي.

وقشعريرة .. قشعريرة لا سبب لها اعترَت جسدي بأكمله، خصوصًا عمودي الفقري بالكامِل، شعرتُ بالشُعيرات الصغيرة التي تملأ ذراعي تنتصِب، وجسدي يرتجِف، والعرق البارِد يملأ جبيني وجلدي بشكلٍ غير معهود.

ومن خلفي، شعرتُ بحركةٍ بسيطة، كادَت تكون غير ملحوظة، التفتُّ بشرعة ونظرتُ خلفي، ورأيته .. الأستاذ خليل حاتِم. تبًا، لقد نسيتُه للحظة!

أومأ برأسه نحو الكيس الخيشي وسألني: «جِبت الحاجة دي منين؟»

حاولتُ تمالُك أعصابي، والتظاهُر بالثقة، وأنا أقول: «مش دا السؤال الصح .. السؤال الصح هو حضرتك رميت الحاجة دي ليه؟»

سألني بعصبيّة: «وهو فيه حاجة تمنَع واحِد يرمي شوية زِبالة؟»

ابتسمتُ وفتحت الكيس وأخرجتُ القُماشة المنقوعة في الدِّماء، وسألته بثقة: «ودي برضه زبالة؟»

ورغم الإضاءة الخافِتة، رأيتُه يرتعِد، لكِنها لم تستمِر طويلًا، لأنه شرعان ما استعاد ثقته بنفسه وثباته وقال: «ولنفترِض .. مش يمكِن دابِح؟ دابِح فرخة أو خروف؟ مش يمكِن اتعوّرت وأنا بنضّف؟»

فردتُها بأطراف أصابعي، وسألته: «واللي بيتعوّر بيرسِم حروف وطلاسِم برضه؟»

سألني بجديّة: «إنت عايز إيه؟»

أجبته: «عايز أعرَف إيه دا؟ عَمَل؟»

تأمّلني للحظة، ثم ابتسم ابتسامةً اختفت بسُرعة، وكأنه حرّمها على شفتَيه، قبل أن يقول: «عَمَل؟ هو إنت مفكّرني إيه؟ دجّال؟ ولا فاكِر إني قتلت حد؟»

أصابَت الكلِمة الأخيرة شكوكي في مقتل، فسألته بشرعة: «ليه؟ هو حضرتك قتلت حد؟»

قال بعصبيّة: «إنت أكيد مجنون!» صمتُّ للحظة، ثم أضاف: «لو

عندك شك إني قاتِل حد، روح بلّغ الشُرطة، وساعتها هتكلّم معاهُم، لكِن إنت .. هتكلّم معاك ليه؟»

أجبته: «أنا مش عايز حضرتك تتكلّم معايا! أنا عايز أعرَف حضرتك بتعمل إيه بالحاجات دي، وليه رميتها وخلصت منها؟»

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال: «هواية».

سألته: «نعم؟»

كرّر كلِمته: «هواية، دي مُجرّد هواية! أنا بحب أقرا في السحر، وبحب أقرا عن الحياة بعد الموت».

سألته بدهشة: «وهو فيه حياة بعد الموت؟»

قال وهو يرفع كتفَيه: «عندك دليل إن مفيش؟»

أجبته: «لأ، السؤال الصح، حضرتك عندك دليل إن فيه؟»

أومأ برأسه إلى الكيس، وقال: «أديني بحاوِل وبجرّب».

لم يُقنِعني الكلام، لأنني أعرِف يقينًا أنه لا حياة بعد الموت، فالكلِمتان مُتضادّتان، والتضاد واضِح .. لا ريب فيه! لكِنني رأيتُ غرابة أطواره، ورأيتُ الدّماء على منديله، وكتاب السحر الذي ألقاه، لذا قرّرتُ التظاهُر بأنني أُصدّقه، ولم أُحاوِل مُجادلته، فلا أعتقِد أن مُجادلة غريبي الأطوار شيء يجِب فعله.

سألته: «وحضرتك بالحاجات دي قدرت توصَل لحاجة؟»

ابتسم ابتسامة غامضة وقال: «دي حاجات مبتتحكيش، يعني لو قُلتلك إني عملت طريقة للتواصُل مع حدّ ميّت، ونِمت حلمت بيه،

يبقى جالي عشان الطريقة دي نجحِت؟ ولا عشان عقلي الباطِن مشغول بيه وبالتالي جالي في أحلامي؟»

فكّرتْ فيما قاله للحظات، قبل أن أُقرّر أن الأمر يفوق مستوى قُدراتي، وربما هذا مقصود تمامًا كي يُربِكني ويُشتِّت أفكاري، لكِن قبل أن أستجمِع شتات نفسي، سألني: «بتسأل ليه؟ عندك حدّ ميِّت عايز تتواصِل معاه؟»

نظرت له للحظة، ثُم قُلت: «ومين فينا الموت مخدش منه عزيز؟»

أخذ نفسًا عميقًا وقال: «بس عزيز عن عزيز يفرِق، فيه عزيز ديِّته شوية زعل ونسيان، وفيه عزيز بيسيب جوانا جرح مبيدبلش».

تأمّلني للحظة، ثُم قال: «واضِح إنك غاوي مُسلسلات عربي».

سألته: «ولو ليّا عزيز .. أقدر أكلّمه بعد ما يموت؟»

أشار بإصبعٍ نحيل إلى قطعة القُماش، وقال: «لازِم يبقى بينكم صلة، ويُستحسَن تبقى دم عشان تقدر توصل له».

بصّيت لقطعة القُماش وسألته: «يعني دا دمّك؟»

جذب كُم الروب بعيدًا عن معصمه، كاشفًا عن جرح مُضمّد وقال: «مُمكِن». ثُم أعاد كُمه إلى مكانه قبل أن يتسنّى لي النظر إليه بترقٍّ.

سألته: «حضرتك كُنت بتحاوِل توصَل لحد من دمّك، حد ميِّت، وعملت كُل دا عشان توصله، صح؟»

أخذ نفسًا عميقًا، ثُم قال: «ولو صح .. هيفرق معاك في إيه؟»

أجبته: «مش هيفرق معايا في حاجة، بس مُمكِن يفرق مع حضرتك

لو حكيت».

سألني: «تفتكر لو حكيت .. حاجة هتتغيّر؟»

«مُمكِن، ومُمكِن لأ. بس الأكيد إن حضرتك مش هتخسَر حاجة».

سار حتى نافِذته، فتحها سامحًا لضوء الشمس بالتسلُّل إلى شاليهه المُظلِم، ونظر إلى البحر القريب، وقال: «هِناك .. عند ضهر الحوت».

اقتربتُ منه، ونظرتُ إلى ضهر الحوت من فوق كتفه، وفكّرتُ في سؤاله، لكِنني شرعان ما قرّرتُ أن أتركَ له مساحته ليشعُر بالراحة، وهذا ما حدث، لأنه قال: «من كام سنة، كُنت هِنا مع مراتي وبنتي، وغفلت عن بنتي ثانية .. الموج كان عالي، والسّحب كان أقوى منها، المية سحبتها في ثانية، ومشفتش لها أثر، دوّرنا كتير .. وعملنا كُل حاجة .. بس خلاص، اللي البحر بيكلبِش فيه، مبيسيبوش غير بالموت».

سألته بهدوء: «ملقيتوهاش؟»

هزّ رأسه، ومدّ يده ليمسَح دمعة لم أرَها لأنه يوليني ظهره، وقال: «مقدرتش أتخطّي، بس مراتي قدرت، وسابتني لمّا لقتني واقِف مكاني، مكُنتش قادِر آجي هنا .. قعدت عشر سنين مش قادِر .. لحد السنة اللي فاتِت، قدرت آجي تاني، وأفتَح الشاليه، وأقعُد فيه».

أخذ نفسًا عميقًا، ثُم قال: «إمبارح كانِت سنويتها العاشرة، ومن غير ما أحِسّ لقيت رجليّا خدتني لهناك .. عند ضهر الحوت .. وقعدت أتكلّم معاها، ساعة كاملة بتكلّم، ورجعت عملت اللي إنت شايفه دا، ونِمت».

سألته: «وحلمت بيها؟»

دار ورأيتُ عينَيه، مليئتَين بالحُزن، مسح دموعه وقال: «أول مرّة أحلم بيها من عشر سنين!»

ابتسمت وقُلت: «يعني الطريقة نجحِت؟»

هزّ رأسه وقال: «معرفش .. معرفش صدقني .. بس كانِت واحشاني أوي».

اقتربتُ منه وحاولت احتضانه، لكِنه أبعدني عنه برفق وقال: «مُمكِن تسيبني لوحدي؟»

سألته: «مُتأكّد؟»

مسح دموعه في كُم روبه، وقال: «سيبني لوحدي».

اتجهتُ نحو الباب، لكِنه أمسَك بالكيس، وقال: «سيب دا».

نظرتُ للكيس للحظة قبل أن أتخلّى عنه، وأنا أسأله: «مُتأكّد؟»

قال: «وحشتني .. وحشتني أوي».

تركتُ الكيس وفتحتُ الباب وخرجتُ، خرج خلفي، وناداني قائِلًا: «سعيد».

نظرتُ له، فقال: «شكرًا، بس اللي حصل هِنا ميخرُجش من هِنا من فضلك، مش عايز حد يعرَف عني حاجة».

ابتسمتُ وهززتُ رأسي، لكِنني لم أنبس ببنت شفة، لأنني لو نطقتُ حرفًا واحدًا .. لبكيتُ دهرًا طويلًا!

أخذتُ نفسًا عميقًا وتحرّكتُ قبل أن أبكي أمامه، وقرّرت .. قرّرتُ أن أتركه لأحزانه وألا أزعِجه مُجددًا!

فالرجُل فيه ما يكفيه!

وهكذا تركته وانطلقتُ، سمعتُ صوت إغلاق الباب من خلفي، لكِنني لم أهتمّ، فقد كُنتُ في طريقي إلى غُرفتي.

أحتاج للانفراد بنفسي قليلًا!

(٢١)

قرّرتُ أن أبدأ يومي بوجهٍ حسن، لذا عندما استيقظتُ من نومي، ارتديتُ ملابسي بشرعة، وخرجتُ تاركًا قدماي تقوداننى إلى وجهتي دون كثيرٍ من التفكير، طرقتُ الباب وانتظرتُ للحظة، هذه المرّة لم أشعُر بالاستعجال لأطرُقه مرّة أخرى، وهكذا انتظرتُ حتى سَمِعت صوت الخطوات المكتومة من خلف الباب.

ابتسمَت لمّا رأتني، فتهلّلَت أساريري لرؤيتها، قالَت: «إزيّك يا سعيد؟ إيه الزيارة اللطيفة دى؟»

ابتسمتُ وقُلت: «إزيّك يا مِس مريَم؟ عاملة إيه؟ قُلت آجي أتطمّن عليكِي وعلى مدام شاهيناز».

«إحنا تمام والله، هي لسّه نايمة، الأدوية بتخلّيها تصحى متأخّر شويّة، بس هي تمام الحمد لله».

«الحمد لله، ربنا يطمّنك عليها ويجازيكي خير».

ابتسمَت بخجلٍ وقالَت: «على إيه بس؟ دا شُغلي».

«الله يجازيكي خير».

اكفهرّ وجهها لحظة، قبل أن تقول: «إوعى تكون جاي عشان الراجِل المخبول دا؟»

ابتسمتُ لوصفها، قبل أن أقول: «هو آه، بس مش زيِ ما انتِ فاهمة».

ذهبَ لُطفها أدراج الرياح وهي تسألني بجديّة غير مُناسِبة لبراءة

ملامحها: «أمال فيه إيه؟ قلقتني!»

اتّسَعَت ابتسامتي في مُحاولةٍ خرقاء للتهدئة من روعها، وقُلت: «هو أنا جاي أعتذِر لك ولمدام شاهيناز عن اللي حصَل، وأوعِدكُم إنه مش هيتكرّر تاني».

قالَت بغضب: «دا راجِل مجنون، مُذكّرات إيه اللي هسرقها منه؟ قسمًا بالله لولا مدام شاهيناز مش حِمل قلق كُنت طلبت له الشُرطة، ونروح هِناك بقى نشوف هل فعلًا فيه مُذكّرات واتسرقِت، ولا هو كان عايز يتهجّم على اتنين سِتات عايشين لوحدهم».

ترَدّدتُ للحظة، ثُم قُلت: «هو عنده مُشكِلة إنه تقريبًا بينسى أو حاجة، لأن دايمًا فيه حاجات بتختفي من الشاليه بتاعه، وهو عنده مشاكِل قديمة مع المُعجبين، عشان كدا موسوِس شويّة».

قالَت في شموخ: «لأ، المفروض يبقى عنده نظرة هو بيكلّم مين وبيكلّمه إزاى».

«هو مش قصده والله، بس حضرتك عارفة إن اللي إتلسع من الشوربة بينفُخ في الزبادي يعني».

أجابتني فورًا: «لأ، هو أي حدّ بينفُخ في الزبادي مجنون، حتى لو كان إتلسع من الشوربة قبلها، وحتى لو كان عنده مشاكِل .. فإحنا مش مُجبَرين نتحمّلها ولا ندفَع تمنها أبدًا».

قُلت في اقتناع: «عندِك حق، بس هو الموضوع مش كدا والله، هو بس أنا اتكلّمت معاه وفهّمته إن أي حاجة بعد كدا هيكلّمني أنا، وأنا هتصرّف».

وضعَت يدَيها في خصرها بتحدٍّ، وقالت: «وإنت هتتصرّف إزاي بقى؟ هتحقّق معايا؟ ولا عايز تدخُل تدوّر إنت كمان؟»

أشرتُ لها بيديَ كي تهدأ قليلًا، وقُلت: «حلِمك عليّا بس يا مِس مريَم، مش قصدي والله أبدًا، أنا اتكلّمت معاه بعد ما مشينا من عند حضرتك، وقُلت له إني هدوّر له على مُذكّراته، لإنها غالبًا ضايعة هنا ولا هنا زي كُل مرّة، وخدت منه وغد إنه مش هيتعرّض لحضرتك تاني خالِص».

سألتني، وقد هدأت قليلًا: «هو متعوّد على كدا؟»

أجبتها: «مش موضوع متعوّد، بس هو كُل فترة بيضيّع حاجته ويقعُد يدوّر عليها».

سألتني بدهشة: «وإنتم بتعملوا إيه في الموضوع دا بقى؟»

أجبتها: «بنفتّح تحقيق في الموضوع، ونفضّل نحقّق لحَد ما يلاقي حاجته، وخلاص على كدا».

سألتني: «ومفيش ولا مرّة دخّل الشُرطة في الموضوع؟»

هززتُ كتفي وقُلت: «لأ، كُل مرّة بتنتهي ودّي، بس هو المرّة دي مهدّد هيكلّم الشُرطة».

قالت بغضب: «يعمِل اللي يعمِله بقى». ثُم فكّرت للحظة، قبل أن تقول: «بس رأيي، إن طالما الموضوع بيتكرّر، مالوش داعي ندخّل الشُرطة في الموضوع». صمتت للحظة، ثُم أضافت: «على الأقل دلوقتي».

أجبتها: «أنا برضه رأيي من رأيك، وقُلت آجي أطمّنك إنه إن شاء الله مش هيتعرّض لحضرتك ولا لمدام شاهيناز مرّة تانية».

«يُستحسَن، لإن المرّة الجايّة مش هفوّتها».

ابتسمتْ وقُلت: «متقلقيش خالِص، بعد إذنِك».

واستدرتْ مُستعدًّا للرحيل، لكِنها نادتني بلهفة: «سعيدا»

استدرتْ ونظرتْ إليها مرّة أخرى: «إيه يا مِس مريم؟ حضرتك محتاجة حاجة؟»

ابتلعَت ريقها بصعوبة، ورأيتُ اللون الأحمر يزحَف ليحتلّ وجهها، وهي تُحاوِل تجميع الحروف اللازِمة لتكوين كلِمات، ثُم ترتيب الكلِمات المطلوبة لإنشاء جُمَل، قبل أن تقول بصوتٍ مُختنِق: «أنا آسفة».

شعرتْ بالدهشة، فسألتها: «على إيه؟»

ترَدّدت للحظة، ثُم قالَت: «عشان كلّمتك بطريقة مش كويّسة يوم قطع الكهربا، أنا عارفة إن ملكش ذنب في أي حاجة، أنا بس .. ». صمتَت للحظة، قبل أن تُضيف: «أنا بس كُنت قلقانة على مدام شاهي، عشان كدا كُنت متوتّرة أوي».

ابتسمتْ لها وقُلت: «ولا يهمك، أنا مقدّر جدًّا».

لمسَت كتفي وهي تقول: «أتمنّى متكونش متضايق مني والله».

ارتعد جسدي للحظةٍ للمستِها، وأنا أقول، محاولًا التظاهُر بالثبات: «والله لأ، أنا كُنت ناسي أصلًا».

ابتسمَت لي ثُم عادَت للشاليه، وقبل إغلاق الباب، قالَت: «شكرًا يا سعيد».

استغرقني الأمر بضع لحظاتٍ ليستعيد مُخّي قُدرته على ضخّ الدم في بقية أعضاء جسدي، ومقدرته على إرسال الأوامِر لأطرافي، قبل أن أتحرّك من مكاني، وأتحرّك بشكلٍ تلقائي، دون أن أستعيد عافيَتي الذهنيّة بشكلٍ كامل.

وصلتُ إلى شاليه كريم بيه، الذي جلس، كعادته، في حديقته، وهو يضغط أزرار اللاب توب الخاص به بسُرعة وإتقان، وقفتُ بالقُرب منه وتنحنحتُ لأجلو حَلقي، فانتبَه لوجودي، رفع عينه عن الشاشة ورآني، فقال: «أهلًا سِعدة، تعالى ادخُل».

دخلتُ وجلستُ أمامه، دون إذن هذه المرّة، إذ أعتقِد أن علاقتنا قد توطّدت بما يكفي، مع حفظ المكانة والفارِق طبعًا، ابتسم وسألني: «أي رياح طيّبة جاءت بك يا فتى؟»

تلفّتُّ حولي، ثُم قُلت: «لأ، أعتقِد الجو النهاردة حلو شوية، مفيش رياح ولا حاجة يعني».

قهقه ضاحكًا وقال: «والله دمّك خفيف، إوعى تتغيّر».

لم أفهَم مقصده، لكِنني تظاهرتُ بالابتسام بدوري، وجلستُ في صمت، عاد للعمل على جهازه لعدّة دقائِق، وهو يقول بغير تركيز: «ثواني وهبقى معاك».

تمتمتُ بصوتٍ مكتوم: «ولا يهمك، خُد وقتك يا كريم بيه».

مرّت دقائِق بطيئة، قبل أن يُغلِق شاشة جهازه ويقول: «قعدتك

بتقول إنك عايز حاجة، قول يا بطل».

توتّرتْ قليلًا، قبل أن أقول: «هو يعني .. الموضوع .. بُص .. أنا بس عايز أقول .. هو الموضوع .. ».

ابتسم وقال: «متفكّرش، قول اللي في قلبك على طول».

أجبته: «هو بس .. أنا نفسي أبقى زي حضرتك».

رفع حاجبَيه في دهشة وسألني: «تبقى زيي إزاي يعني؟»

أجبته: «يعني أتكلّم وألبِس زي حضرتك، ويبقى ليّا صُحاب بنات كتير، وأبقى حد الناس بتحترِمه».

ابتسم وقال: «معنى كلامك إن حَصل حاجة فيها قلّة احترام ليك، تحِب تحكيلي؟»

قصصتُ عليه كُل شيء، بدءًا من الإضافات العشوائيّة وحتى المنشور القاسي المُسيء، فابتسم وقال: «بُص .. دا مش معناه أبدًا إنّك حد قُليّل أو مش مُحترَم، بالعكس تمامًا، فيه بعض الناس بيبقى معاهُم فلوس ووجاهة ووضع اجتماعي لكِن مفيش عندهم لا ذوق ولا أخلاق، وخلّيك عارِف كويّس أوي إن الناس دي منظَر وفلوس على الفاضي، في الآخر .. السيرة اللي بتبقى».

احتقن وجهي وقُلت: «بس أنا حاسِس بإهانة كبيرة، خصوصًا يعني إن ليلى مُمكِن تشوف المنشور يعني».

أجابني: «هو مش مُمكِن، هي أكيد هتشوفه، بس هي لو بتحبّك زي ما إنت بتحبّها، أو على الأقل فيه مشاعِر .. هتضحك على سطحية

اللي كاتِب البوست، المُهِم يعني .. أنا مش عايزك تشغِل دماغك بالموضوع دا خالِص».

سألته: «هل فيه طريقة مُمكِن نشيل بيها المنشور دا؟»

قال: «فيه طريقتين، أولًا مُمكِن نعمِل Remove Tag من البوست عشان الأكوِنت بتاعك يتشال منه، وبعدين مُمكِن تعمِل Report على الصورة، وتقول إن الشخص دا مستخدِم صورتك بدون إذنك، وكام يوم وهيتشال، الموضوع بسيط أوي يعني».

همست له: «الله يريِّح قلبك». ثُم تأمّلت هاتفي للحظة، قبل أن أقول: «طيِّب مُمكِن .. ».

مدّ يده وأمسَك الهاتِف قائِلًا: «مُمكِن جدًا». انهمك في الضغط على عدة أشياء، وكِتابة بضع كلِمات، قبل أن يُعطيني الهاتِف ويقول: «يومين، وكُل حاجة هتبقى زي الفُل».

شكرته بإيماءة من رأسي، وبضع كلِمات غير مفهومة قيلَت بصوتٍ غير مسموع، قبل أن أقول: «طيِّب ومُمكِن حضرتك تعلّمني أبقى زيّك؟»

ابتسم وقال: «هي مش حاجة حدّ بيتعلّمها، بس مُمكِن أقولّك شوية نصايِح يعني، بُص يا سيدي .. ».

(٢٢)

تركته ورحلت، مُحمّلًا ببعض النصائِح والتعليمات، ومُثقلًا بضرورة التحدُّث مع ليلى في موضوعات مُعيّنة، بعد أن نبّهني لعدّة مُلاحظات، مثل أهميّة عدم استباق الأحداث، أو الإفراط في التحدُّث عن أمور شخصيّة للغاية، أو عدم إبداء الاهتمام الكافي، وكذلِك ضرورة تركها تتحدّث حتى تكتفي، وأن أكون مُستمِعًا جيّدًا وأُنصِت لكُل ما لدَيها من كلام.

سِرتُ في أروقة القرية، أثناء تنفيذي لروتيني المعتاد، الذي كُنتُ قد انشغلتُ عنه خلال الأيام الماضية، بعد أن أثقل التحقيق في الجريمة كاهلي، فقرّرتُ اليوم التجوُّل بين الشاليهات وفي شوارِع القرية في محاولةٍ للتفكير بشكلٍ كاف، وفي نفس الوقت إراحة ضميري بتلك الجولة القصيرة، قادتني قدماي إلى ذلِك الشاليه ذي النافِذة المُضيئة، الذي لفتَ نظري يوم اكتشاف الجُثّة.

ولأنه شاليه على أطراف القرية من الناحية الأخرى، بعيد كُل البُعد عن الشاليهات المأهولة والمسكونة، فلم يكُن حوله أي شاليه من أي ناحيةٍ فيه أي ساكِن من أي نوع، ويبدو أن عقلي – الغارِق في التفكير – انتبه لتلك الملحوظة الهامّة، فأتي بي إلى هُنا.

لكِن المُهِم الآن، أن كُل الأفكار توارَت جانبًا، وأبَت الظهور مرّة أخرى، في اللحظة التي تسلّلت فيها تلك الرائِحة الكريهة إلى أنفي، لم تكُن رائِحة عفن، أو قلّة نظافة، أو أي شيء من هذا القبيل.

بل كانَت رائِحة الموت!

انقبَض أنفي، حتى إنني مددتُ يدي بشكلٍ تلقائيٍّ لأسدّه، في مُحاولةٍ بائِسةٍ لكتم أنفاسي، أو لمنع تلك الرائِحة من التسلُّل إلى روحي، فكُل الروائِح تزور الأنوف .. إلا رائِحة الموت، تلوّث النفوس والأرواح.

اقتربتُ من الشاليه، وأنا أرفع كوفيّتي الصوف الحمراء إلى أنفي، ذُرت حوله، مُتأمّلًا نوافِذه المُغلقة وستائِرها المُسدَلة، حتى وجدتُ نافِذة عارية، بلا سِتارة أو غطاء يستُر الموجودات خلف زُجاجها.

اقتربتُ، مُقاوِمًا الرائِحة الكريهة، ونظرتُ منها، وأمام عيني.. وجدتُ الشاليه يعجُّ في حالةٍ من الفوضى. وكأنه عبارة عن لعبة صغيرة، انتهى طفل مُصاب بفرط الحركة من اللعب بها. فلا شيء في مكانه، ولا شيء في موضعه.

الأرائِك مقلوبة رأسًا على عقبٍ، منهوشة الأحشاء، وقُطنها مُتناثِر حولها بشكلٍ عشوائي. أما طاوِلة الطعام فساقِطة على جانبها، وزُجاجها مُتهشّم بعُنف. ناهيك عن المزهريات والفازات التي تهشّمت وتناثرت ورودها – الطبيعيّة منها والصُناعيّة – في أرجاء الغُرفة.

كما رأيتُ مجموعة من الأخشاب المُهشّمة متكوّمة فوق بعضها البعض؛ وأدركتُ بعد نظرة سريعة أنها كانَت طاوِلة قهوة سيئة الحظ. ناهيك عن لاب توب – من ماركة شهيرة باهِظة الثمن – انقسَم إلى قسمَين مُنفصِلَين تمامًا. وكذلِك سقطَت الثُريّا أو النجفة المُعلّقة بالسقف لتتهشّم أرضًا.

لكِن كُل هذا لم يكُن الشيء الذي جعل قلبي يتوقّف عن النبض للحظة، بل شيء آخر.

فرغم تلك الفوضى العارِمة، والأشياء المُتناثِرة، وكُل شيء .. إلا أنها كانَت الشيء الوحيد الذي نَجح في سلب لُبّي وجذب انتباهي، حيث استلقَت وسط الصالة، وكأنها نجمة هذا العرض الفوضوي من الخُطام، بلا حراك!

وسط كُل شيء .. استلقَت جُثّة!

لكِنها لم تكُن جُثّة الدكتور المفقودة .. بل جُثّة سيّدة!

سيّدة مجهولة!

***

فكّرتُ في الذهاب إلى المِستر خالِد من فوري، لكِن عقلي شرعان ما أمرَني بالتروّي قليلًا، إذ إنني لم أتأكّد بعد من حقيقة إخفائه للجُثّة الأولى، ومن المُمكِن أن أخبره، فيُرسلني للقيام بشيءٍ ما، ثُم أعود لأجِد الجُثّة قد اختفَت مثل سابقتها تمامًا.

لكِن حقيقة كهذه أكبر من قُدرتي على الاحتمال، ولا يُمكِنني الاحتفاظ بها لنفسي، لذا فكّرتُ بشرعة فيمن يُمكِنني الذهاب إليه بمثل هذه المُصيبة السوداء، وهكذا بدأت أحضُر اختياراتي..

- الأستاذ حُسام كامِل، المُمثّل، الذي هنّدني من قبل بالمعلومات التي أخبرته بها.

- مِس مريم، لكِنها أرقُّ وألطف من معرِفة مثل هذه الحقيقة.

- الأستاذ خليل حاتِم، أعتقِد أن الحُزن أثقل كاهِله بما يكفي لأُثقِله بمثل هذه الحقيقة.

وتركني هذا أمام اختيار واحِد، الشخص الوحيد الذي أثِق فيه بالدرجة الكافية لآتمِنه على هذا السر، لذا أسرعتُ إلى شاليهه دون لحظةٍ أخرى من التفكير، وما إن وصلت، حتى لاحظ أنني لستُ على ما يُرام.

ابتسم بقلق وسألني: «مالك يا سعيد؟ حد ضايقك تاني؟»

حاولت الإجابة على سؤاله، لكِن حلقي الجاف منعني من التحدُّث بأي لُغة مفهومة، لذا حاولتُ مرّة أخرى: «لأ، بس فيه مُشكِلة».

سألني بمزيدٍ من القلق: «مُشكِلة إيه؟ خير؟»

ترددتُ للحظة، ولم أقوَ على الإجابة، فتابع قائِلًا: «ثِق فيّا شوية، قولّي».

أخذتُ نفسًا عميقًا، قبل أن أقول: «لقيت جُثّة».

قهقه وقال: «ما إنت حكيتلي يا سِعدة قبل كدا! إيه؟ نسيت ولا إيه؟»

ابتلعت ريقي بصعوبة وقُلت: «لأ .. جُثّة تانية».

نهض من مكانه بدهشة، واتّسعَت عيناه بشدّة وهو يقول: «إيه؟ جُثّة تانية؟ فين؟»

***

ابتعد عن النافِذة وهو يُغلِق أنفه بشدّة، وقال: «دي جُثّة فعلًا، ومن منظرها كدا .. بقالها كام يوم أصلًا».

سألته: «يعني ماتِت يوم الجُثّة التانية؟»

هزّ كتفيه وقال بصوتٍ مكتوم: «حقيقي معرفش، أنا مش دكتور شرعي، والجُثّة مش أدامي عشان أحكُم، بس هي باين إن بقالها كام يوم فعلًا».

«طيّب حضرتك تقترِح إيه؟»

«أقترِح إيه؟ إنت بتهزّر؟ إحنا لازِم نبلّغ الشُرطة!»

أجبته بقلق: «بس عشان نبلّغ الشُرطة، لازِم أقول للمِستر خالِد الأوّل، وحضرتك أكيد فاكِر اللي حَصَل أوّل مرّة».

«تفتكر هيخبّي الجُثّة دي كمان؟»

«تفتكر لأ؟»

«طيّب والعمل؟ مينفعش نسكُت على وجود جُثتين يا سعيد!»

فكّرت للحظة، ثُم قُلت: «طيّب بس المرّة دي الوضع مُختلِف، الجُثّة جوا شاليه، مُمكِن حضرتك تديني يوم ولا حاجة أعرَف اسم صاحِب الشاليه».

«وبعدها هتبلّغ الشُرطة؟».

«غالبًا لأ، بس بعدها هعرَف إزاي هتصرّف».

«إنت مجنون؟ إنت كدا هتودّينا كُلنا في داهية يا بني آدم».

فكّرتُ للحظة، ثُم قُلت: «حضرتك عندك حق، بس أنا عندي فكرة».

صاح بي: «فكرة إيه؟ إنت لسّه هتفكّر وتقول أفكار؟»

«أنا عايز حضرتك تِثِق فيّا وتسمعني، وبعدها قرّر هتعمِل إيه».

«إتفضّل .. قول».

«ينفع أطلُب منّك حاجة صعبة شويّة؟ بحُكم شُغلك يعني .. أظن إنك هتبقى قادِر تعملها بسهولة».

نظر لي بدهشةٍ للحظة، ثُم سألني: «إنت بتفكّر في إيه؟»

أخذتُ نفسًا عميقًا وأجبته: «هقول لحضرتك».

وبدأت أشرَح له كُل شيء.

(٢٣)

طرقتُ على باب غُرفة المِستر خالِد برفق، وانتظرتُ قليلًا.

عَرِفتُ أنه سَمِعني لأنني أراه بوضوح، مثلما يراني، عبر باب مكتبه الزُجاجي الشفّاف. جلس خلف مكتبه، مُنهمِكًا في مُراجعة بعض الأوراق، وحساب بعض الفواتير، وكِتابة بعض الملحوظات في دفترٍ خارجي.

انتظرتُ للحظة أخرى، ثم طرقتُ الباب مرّة أخرى، فصاح في نفاد صبر: «لحظة واحدة».

انتظرتُ حتى انتهى من الكِتابة، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم قال: «ادخُل».

بمُجرّد أن وطئت قدمي أرض مكتبه، حتى صاح بغضب: «إيه يا بني آدم؟ مش شايفني مشغول؟»

قُلت مُعتذرًا: «أنا آسف والله، بس الموضوع مُهِم ومينفعش يتأجّل».

قال بغضب: «ما هو آه، وإنت يعني هتجيلي بخبر حلو؟ ما أكيد هتجيلي بمُصيبة تانية».

أجبته بصوتٍ خافت: «هي فعلًا مُصيبة، بس مش عايز حضرتك تقلق أو تتخَضّ من فضلك».

ضرب بيدِه على سطح مكتبه، وقال بغضب: «إخلص يا ابني، أنا مش ناقصك».

أشرتُ له أن يهدأ قليلًا، وأنا أقول: «مُمكِن حضرتك تهدا شوية، وتاخُد دوا الضغط الأوَّل؟»

وقف في مكانه وهو يقول: «هو بونبوني هاخده في أي وقت؟ ما تخلَص يا بني آدم!»

أجبته: «مُمكِن حضرتك تهدا وتقعُد طيِّب وأنا هشرَح لك كُل حاجة؟»

جلس وهو يزفُر بضيق وقال: «اللهم اخزيك يا شيطان، أديني قعدت أهو، لمّا أشوف آخرتها معاك».

أخذتُ نفَسًا عميقًا، وقُلت: «هو أنا كُنت بلِف في القرية، عشان أتابِع الدُنيا يعني، وبعدين .. ».

سألني بنفاد صبر: «وبعدين إيه؟ إخلَص؟»

«وبعدين لقيت جُثَّة تانية، جُثَّة سِت المزّة دي، في شاليه من الشاليهات الفاضية».

«نهار أبوك أسود! أنهي شاليه فيهم؟ وعملت إيه؟»

«الشاليه رقم «١١»، وجيت أقول لحضرتك على طول».

«حد تاني عرف بالمُصيبة دي غيرك؟»

«الصراحة .. ».

دفن وجهه بين كفَّيه، وتنهَّد للحظة وقال: «قُلت لمين تاني؟»

أخذتُ نفسًا عميقًا، قبل أن أقول: «كريم بيه».

قاطعني بضيق: «كريم بيه مين؟»

أجبته: «كريم بيه الحانوتي!»

سألني بدهشة: «حانوتي؟ قصدَك أستاذ كريم رجُل الأعمال؟»

«آه، هو».

«خليته حانوتي؟ وبعدين .. مش وقته، مش وقته! قُلتله ليه؟»

«حسّيت إني عايز أقول لحد، ويمكِن مفكّرتش كويّس من الخضّة بس».

«وبعدين؟»

«ولا قبلين!»

«يعني إيه؟ قُلتله وسلّمتوا على بعض وكُل واحِد راح لحاله؟ إنت عبيط يا ابني؟»

أجبته: «لأ مش قصدي، قصدي قُلتله وكان عايز يبلّغ الشُرطة، بس أقنعتُه يديني يوم أو اتنين لحد ما نعرَف صاحب الشاليه بس وبعدين نتصرّف».

«وهو وافِق على الفكرة العبقرية دي؟»

أجبتُه بدهشة: «آه».

دفن وجهه بين كفّيه مرّة أخرى، وقال: «مُتخلّف!»

سألته ببراءة: «كريم بيه؟»

أجابني بغضب: «لأ إنت! إنت مُتخلّف!»

شعرتْ بالدهشة، لأنني لم أفهَم قصده من الوهلة الأولى، لذا سألته: «طيّب ليه؟ مُمكِن حضرتك تفهمني؟»

نظر لي بدهشة للحظة وقال: «إنت عشان اتكلّمت معاه شوية بقيت صاحبه خلاص؟ يا ابني فوق لنفسك! الناس دي مش شبَهنا! ولا عُمرك هتبقى شبههم! إنت غلبان يا سعيد .. غلبان ومش شبههم ولا زيُهم عشان يخافوا عليك ويحموك!»

أجبته بدهشة: «بس كريم بيه .. ».

قاطعني بضربةٍ قويّةٍ على سطح المكتب وصاح: «يا ابني إفهَم! إنت بالنّسبة لهم نِمرة .. فقرة .. بيتسلّوا بيك! إوعى تصدّق إنّك صاحبه أو إنه صاحبك! إنت يدوب فرد أمن غلبان .. وغالبًا هو اللي قتلهم وبيستغلّ سذاجتك عشان يلبّسك اسود».

«يعني إيه؟»

«يعني هيغيّر مكان الجُثّة دي، بالظبط زي ما عمل مع اللي قبلها، وبعدين هيقتلك .. أو هيحُط الجُثة في أوضتك ويبلّغ عنّك يا حبيبي! إنت كدا خلاص .. زُحت مع اللي راحوا».

اعترتني الدهشة، وشعرتُ بالخوف يُحكِم قبضته القويّة على قلبي الوجِل، ارتعدتُ قليلًا وقُلت بصوتٍ مُنكسِر: «بس .. لأ .. كريم بيه عُمره ما يعمِل فيّا كدا .. لأ!»

«إنت هتعمِل فيها صاحبه؟ يا ابني فوق لنفسك بقى!»

«طيّب حضرتك شايف إيه؟»

قال وهو ينهَض من مكانه: «تعالى .. هنروح للمكان، وأعتقِد .. أعتقِد إننا هنروح مش هنلاقي الجثّة برضُه!»

تمتمتْ بصوتٍ مكتوم: «إن شاء الله لأ».

قال: «إدّيني ثواني، هدخُل الحمّام وبعدين نتحرّك على هناك على طول».

سألته: «طيّب مش هنبلّغ البوليس؟»

أجابني وهو يتجِه نحو دورة المياه المُلحقة بمكتبه الصغير: «مش لو زُحنا ولقينا الجثّة؟»

دخل دورة المياه وأغلق الباب خلفه، وما إن تأكّدتُ من إغلاق الباب حتى تحرّكت لدفترٍ بعينه، فتحته وبحثتُ وسط محتوياته للحظة، حتى عثرتُ على مُبتغاي، سَمِعتُ صوت مياه الطرد، فأغلقتُ الدفتر وأعدته إلى مكانه، وعُدت بدوري إلى مكاني.

أغلق سحّاب بنطاله، وقال: «يلّا بينا؟»

***

ما إن اقتربنا من الشاليه رقم «١١» حتى رأينا كريم بيه يقترِب من الشاليه، يتلفّت حوله كاللصوص، مُلثّم بقناع أو كِمامة سوداء، ويرفَع قبعة سُترته الـ (هودى) ليُغطّي بها رأسه، يُمسِك بيده حقيبة صغيرة بها عدّة أشياء لم نعرِف كُنهها من هذه المسافة البعيدة.

أمسَك المِستر خالِد بيدي وقال هامسًا: «شُفت .. مش قُلتلك هيلبّسَك!»

ابتلعتُ ريقي بصعوبة، وكدتُ أعترِف له أن كريم بيه لم يفعل شيئًا سوى مُساعدتي، فقد طلبتُ منه مُساعدتي عن طريق نقل الجُثّة من مكانها بشكلٍ مؤقت، إلى مكانٍ لا يعلمه سوانا، أنا وهو، خوفًا من اختفائها هي الأخرى.

لكِن لماذا لم يستجِب كريم بيه لطلبي على الفور؟ لماذا تأخّر لهذه الدرجة؟ وماذا تحتوي تلك الحقيبة الصغيرة التي يقبض على مقبضها بأصابعه؟

هل يُخطّط لشيءٍ آخر لم يُريدني أن أعرِفه؟ أم تُراه يُخطّط لوضع بصماتي أو شيء من حاجياتي بجوار الجُثّة؟

أعرِف أنني مَن طلب منه تحريك الجُثة، وأنه مشكورًا قد استجاب لطلبي، رغم أنه غير مُلزَم لإطاعتي.

لكِنه تأخّر، فلماذا؟ هل دخل إلى الشاليه ليُزيل آثاره؟ أم أنه ذهب إلى شاليهه طوال هذا الوقت ليقوم بشيءٍ آخر؟

ساورني الشك في كريم بيه على الفور، مُماطلته مُثيرة للشك، حقيبته مُثيرة للشك، طريقة ارتداءه لتلك الملابِس مُثيرة للشك!

وكلمات المِستر خالَد تأبى الخروج من رأسي!

إنت عشان اتكلّمت معاه شوية بقيت صاحبه خلاص؟ يا ابني فوق لنفسك! الناس دي مش شبهنا! ولا عُمرك هتبقى شبههم! إنت غلبان يا سعيد .. غلبان ومش شبههم ولا زيهم عشان يخافوا عليك ويحموك!

ابتلعت ريقي بصعوبة، وقُلت: «هنعمِل إيه دلوقتي؟»

أجابني بهمسٍ خافت: «هنستنى نشوف هيعمِل إيه الأول، عشان نعرَف نتصرّف».

لكِن قبل أن ينبس أحدنا ببنت شفة، سَمِعنا صوت سيّارة تدخُل إلى القرية بشرعة، صرخَت إطاراتها وهي تتوقّف أمام أحد الشاليهات، قبل أن يُفتَح بابها ونسمَع من يصرخ بهستيريا: «فين المسئول عن القرية دي؟»

(٢٤)

هُرعنا أنا والمِستر خالِد بشرعةٍ إلى السيارة، التي هبطَت منها سيِّدة ترتدي فُستانًا عاري الأكتاف، رغم برودة الجو، وتُغطّي كتفَيها السمراوَين بشالٍ صوفي به لؤلؤات صغيرة تلمع تحت أشعة الشمس التي توسّطت كبد السماء، شعرها قصير، بالكاد يصِل إلى كتفَيها، يميل إلى اللون البُني، وترتدي نظارة شمس من إحدى الماركات الشهيرة. ظلّلَت شفتَيها المُكتنزتَين بلونٍ زاهٍ أقرَب للبُني المحمر، ووضعت القليل من الزينة على وجهها، المتوسّط الجمال نوعًا ما، كانَت جدّتي تقول مثلًا شعبيًا يصِف تلك السيِّدة بالضبط: «يعطي الحلق للي بلا ودان». لكِنها بـ (ودان) تُزيّنها أقراط ماسية تقريبًا أو شيء من هذا القبيل.

بيت القصيد هو أنها تمتلِك الكثير من المال، وفقًا لزيّها وزينتها، لكِنها تفتقِر للجمال الربّاني الخلّاب، ذلِك الذي يُميّز الكثير من الفقيرات أو متوسّطات المستوى، خلعت نظارتها التي غطّت عينَيها البُنّيتَين، ونظرت للمِستر خالِد باشمئزاز، أو نظرة من فوق لتحت كما يقولون قبل أن تسأله: «إنت المسئول عن المكان دا؟»

قال بقليلٍ من العصبية، مُحاولًا ضبط نفسه: «خير يا فندِم؟ مين حضرتك؟»

قالَت له بسُخرية: «لأ وإنتم الشهادة لله مُهتمّين تعرَفوا مين داخِل ومين خارِج!»

نظر لي بدهشة، وسألني: «هي بتكلّمني كدا ليه؟»

قرّرت التدخُّل في الحوار، مُحاولًا تهدِئة الأجواء قليلًا: «معلِش مُمكِن حضرتك تهدي شوية عشان نقدَر نساعدِك؟»

نظرت لي بنفس القرف تقريبًا، قبل أن تسأله بسُخرية: «ودا إيه البِتاع دا كمان؟»

نزل رجُل من المقعَد الخلفي للسيارة، وقال لها: «استنّي إنتِ يا لولا، خلّيني أتصرّف أنا».

نظرَت له بتحدٍّ للحظة، ثُم أشارَت له بإيماءةٍ تعني: *وريني شطارتك!*

اقترب من المِستر خالِد، وقال بهدوء: «أنا ياسِر، جوز مدام لولا، بنت طنط شاهي».

نظر لي المِستر وكأنه يستنجِد بي، فلم أتردّد لحظة في إنقاذه، قائِلًا: «مدام شاهيناز، القعيدة اللي في الشاليه دا، ومعاها مِس مريَم الفمرّضة».

قالَت لولا بشخرية من خلفه: «قصدَك كانِت .. ».

لم أفهَم قصدها، لكِن لا داعي لسؤالها عنه الآن، فأي مُحاولة لاستفزازها ستأتي بنتيجةٍ عكسيّة مُهينة، لذا ابتلعتُ فضولي، ووأدتُه في مهدِه، ونظرتُ للأستاذ ياسِر، الذي تابع حديثه قائِلًا: «طنط شاهي كلّمتنا من تليفون غريب، Video Call عشانها مش بتتكلّم زي ما إنتم عارفين، و .. ».

قاطعته بمزيدٍ من الشخرية: «والله دول نايمين على ودانهم، ولا عارفين حاجة عن أي حاجة».

أشار لها أن تهدأ قليلًا، وعاد يُحاوِل تفسير سبب ثورتها العارِمة: «المُهِم، اللي فهمناه إن المُمرِّضة بتاعتها مشيت وسابِتها لوحدها!»

انعقد حاجباىَ، أين ذهبَت مِس مريَم؟ لم أرَها اليوم فعلًا! هل قتلها كريم بيه؟

أفقتُ من أفكاري على صوت الرجُل، ياسِر زوج مدام لولا، وهو يُتابِع حديثه: «طبعًا بسبب ظروف طنط شاهي، مفهِمناش منها أوي، عشان كدا كلِّمنا المُمرِّضة، اللي قالِت إنها أخدِت أجازة عشان أختها بتولِد».

صاحت لولا بثورةٍ عارمة: «ما طبعًا، ما أنا قُلت لك بلاش تاخُد مُرتب الـ ٣ شهور كلهم، بس إنت مبتسمعش كلامي يا ياسِر، وبتعمِل بس اللي في دماغك، قُلتلك الصنف دا نمرود .. ومينفعش يتدلِّعوا».

قال مُحاولًا تهدِئتها: «استني بس يا لولا».

لوّحت بيدها بإيماءةٍ غاضبة، وقالت: «بلا استني يلا بتاع بقى، أهو برودك دا اللي جايبنا ورا، واحدة زي دي تذّيها المبلغ كُله مُقدّم، أهي سابتها ومشيت، إنما لو فلوسها بتوصل متأخّر .. أو حتى بعد ما تخلّص، هتفضل تحت طوعنا».

أغمض عينَيه للحظة، ثُم أمسَك بكتفَيها، ونظر في عينَيها وقال: «مُمكِن تهدي شوية؟»

نظرت له للحظة، قبل أن تنقلِب سحنتها وهي تقول: «اعمل اللي تعمله بقى، إنت مفيش فايدة فيك يا ياسِر!»

سأله مِستر خالِد: «يعني مريم المُمرِّضة مشت وسابتها لوحدها؟ وهي أصلًا قعيدة؟ مُمكِن حضرتك تفهمني بالراحة شوية».

أجابه ياسِر: «طنط شاهي قعيدة، ومش بتتكلَّم، وعشان كدا حركتها صعبة شويتين، آخر مرّة تعبِت .. التعب كان شديد شوية، والدكتور طلب مننا إننا نودّيها مكان مُختلِف تغيّر فيه جو شويّة. فطلبنا من المُمرِّضة تيجي بيها هِنا، وتقعُد معاها ٣ شهور، شهر الشُّتا لوحدهم، وبعدين هنيجي إحنا شهرين الصيف نبقى معاهُم».

شعر المِستر بضرورة الحديث هُنا، فقال: «حلو».

ضحِكَت مدام لولا بسُخرية وقالت: «حلو؟ اتفضَّل .. بيقولّك حلو».

نظر له زوجها بلومٍ للحظة، ثُم عاد يستكمِل حديثه: «لا مش حلو يا فندِم، لإن المُمرِّضة سابتها وهربت، بعد ما أُخِذت فلوسها مُقدَّم».

كانَت قد استندَت إلى السيّارة، لكِنها نهضَت بشرعة، وكأن تُعبانًا قد قرصها وقالَت: «المُمرِّضة الحيوانة دي! أنا هعرَف إزاي أربيها». ثُم أمسَكت خُصلة من شعرها وقالت: «ميبقاش على سِت لو مخليتهاش تحلِف باسمي!» ثُم قالت بدهشة: «أنا لولا العتباني .. تعمِل معايا كدا؟ أنا؟»

أمسكها من كتفَيها مرّة أخرى، وقال بلوم: «مُمكِن تهدي عشان ضغطِك؟ وأنا أوعدك كُل اللي عايزاه هيكون».

نظرت له بسُخرية وقالت: «إنت مش فالِح غير في الكلام إنت كمان». وتركته وعادَت لتستنِد إلى السيارة، مدّت يدها إلى حقيبة صغيرة، وأخرجَت منها ما يُشبِه الفلاشة، وضعت طرفه في فمها،

وفجأة .. خرجت من بين شفتَيها سحابة كثيفة من الدُخان، نفختها عاليًا كالقطار!

عاد أُستاذ ياسِر زوج مدام لولا لاستكمال حديثه قائِلًا: «لمّا كلِمناها قالِت إنها اضطرّت تسافِر عشان أختها بتولِد، ودا طبعًا كلام فاضي .. لإنها ببساطة مش هتوافق تسيب أختها لو عارفة إنها حامِل وهتولِد».

نهضَت مدام لولا عن السيّارة مرّة أخرى، هذه المرّة نفثَت سحابة دُخانها في وجهَينا وهي تقول: «وإنتم إزاي بقي يا حضرات تبقى السّت لوحدها وإنتم متبلغوناش؟»

كيف؟ لقد رأيت مِس مريم بالأمس؟ متى غادرت القرية؟ صحيح أنني لم أرَها اليوم! لكِن هذا لا يعني أبدًا أنها رحلت؟

هل يُمكِن أن تكون قد رحلت آناء الليل؟ واتخذَت من ظلامه ستارًا يُخفيها عن أعيُننا؟

هذا مُستحيل!

أم تُراه مُمكِن!

تركتنا مدام لولا وتحرّكت نحو الباب، فتحته بمفتاحٍ أخرجته من حقيبتها الصغيرة، وما إن فتحته حتى وجدنا مدام شاهي على كُرسيها المُتحرّك تقِف خلفه، وكأنها تنتظِر أن يفتحه أحدهم ليُحرّرها من سجنها الذي تركتها فيه مِس مريم ورحلت خلف شقيقتها.

جلسَت مدام لولا القُرفصاء أمام والِدتها، تحسّست وجهها بحنوٍّ غير مُناسِب لثورتها التي مسَحت كُل أخضر ويابِس من كرامتنا،

وكرامة أستاذ ياسِر، وسألتها برفق: «إنتِ كويّسة يا حبيبتي؟»

هزّت العجوز القعيدة رأسها بالإيجاب، ودموعها تفرّ هارِبة من مقلتَيها، مسحت مدام لولا دموعها بإبهاميها وقالَت: «متقلقيش .. مش هسيبك تاني والله».

ثُم نظرَت لي وقالَت: «إنت .. ادخُل هات لنا كوباية ميّة إجري».

رفعَت مدام شاهي وجهها نحوي، رُبما لترى وجه ذلِك الـ (إنت) الذي خاطبته ابنتها، قبل أن تستقِر على وجهي للحظة، تبدّل فيها حُزنها بزعبٍ عارِم، بدأت تصرُخ بصوتٍ مكتوم، وتُخرِج أصواتًا عشوائيّة، وهي تُومئ برأسها نحوي، وتنظُر لي بفزع.

يبدو أنها لم تنسَ موقِف الأستاذ حُسام كامِل بعد، وتشعُر بالخوف منّي لأنني وقفتُ بجواره يومئذ، والآن تعتقِد أنني رُبما قد أتهجّم عليها مرّة أخرى.

نظرَت لي مدام لولا بدهشةٍ وسألتني: «مالها؟ إنت عملت فيها إيه؟»

نظر لي المِستر خالِد وسألني: «عملت إيه يا سعيد؟»

التفتُّ إليه وقُلت مُدافِعًا عن نفسي: «والله ما عملت حاجة!» ثُم إلى مدام لولا وقُلت: «والله ما عملت حاجة!»

سألتني بعدائيّة: «أمال فيه إيه؟»

أجبتها بقليلٍ من التردُّد: «دا الأُستاذ .. قصدي واحِد من المُلّاك كان بينه وبين مِس مريم المُمرِّضة مشاكِل، وجه اتخانِق معاها هِنا أول

إمبارح، وكُنت حاضِر الخِناقة وخدته ومشيت، وبعدين هي شافتني ماشي معاه، فغالبًا افتكرتني في صفُّه ولا حاجة».

جذبني المِستر من دراعي وسألني: «وإنت مش بتحكيلي الكلام دا ليه يا سعيد؟»

بلعت ريقي بصعوبة وقُلت: «موضوع بسيط، وقُلت بلاش أزعِج حضرتك بيه يعني».

ابتسمت بسُخرية وقالت: «واضِح إنك نايم على ودانك».

احمرّ وجهه وهو يقول: «لأ طبعًا يا فندِم». ثُم نظر لي وقال هامِسًا: «أنا هطلّع عين أهلك، اصبُر عليّا».

استمرّت ثورة مدام شاهي المصبوغة بالخوف، مسَحت ابنتها، مدام لولا دموعها، وقالَت: «إنت هتفضَل واقِف ترغي معانا؟ مش قُلتلك هات كوباية ميّة من جوا؟»

تجاوزتُ مدام شاهي التي صرخَت في خوفٍ مكتوم، وأسرعتُ إلى الداخِل، وقفتُ في الصالة للحظات، أبحث عن المطبَخ، حتى وجدته، أمسكتُ كوبًا فارِغًا، تأكّدتُ من نظافته، وفتحت الصنبور لأملأ الكوب، قبل أن أتذكّر أنهم لا يشربون ماء الصنبور مثلنا، وأنهم إما يشربون مياهًا معدنيّة، أو يستعينون بفلتر من سبع مراحِل تقريبًا ليُكرّر لهم مياههم.

وهكذا غيّرتُ رأيي، وأغلقتُ الصنبور وفتحت الثلاجة، ووقفتُ لحظة لأستوعِب ما أراه، فأمام عينيّ .. امتلأت الثلاجة بأكياس الثلج، مُتراصّة فوق بعضها، وبداخلها تقبَع مُكعّبات الثلج الشفاف،

مرّت لحظة طويلة، وأنا أقِف أمام الثلاجة بلا حراك تقريبًا.

أفقتُ من ذهولي المؤقَّت على صوت مدام لولا تصيح: «إنت هتفضّل واقِف زي البجم كدا كتير؟ ما تتحرّك!»

تمتلِك هذه السيِّدة موهبة فطرية في إهانة كُل سيئ حظ يتقاطع طريقه مع طريقها، مُستخدِمة قاموسًا من الألفاظ المُهينة التي تبرع في اختيارها واستخدامها بمُنتهى السهولة.

خطفت زُجاجة مياه معدنية من رفّ باب الثلاجة وأغلقتها بشرعة، صببتُ الماء كيفما اتفق في الكوب، وأغلقت الزُّجاجة، حملتُ الكوب وسرتُ به إلى مدام شاهي، التي خطفته من يدي بعدائيّةٍ وقالَت: «بتقول إنها خايفة منّك عشان كانِت بتشوفك معاها».

شعرتُ بضرورة الدِّفاع عن نفسي قائِلًا: «أنا؟»

نظرَت في عينيّ بتحدٍّ وسألتني: «إنت كُنت مرافِقها يلا؟ دا أنا هخرِب بيتك!»

دافعتُ عن نفسي قائِلًا: «والله لأ، مِس مريم كانِت مُحترمة والله».

لماذا دافعتُ عنها بصفتها مُحترمة، ولم أدافِع عن نفسي بصفتي مُحترم أولًا؟

انتظرتُ ريثما سقت مدام شاهي كوب الماء، قبل أن أسألها: «هو حضرتك معاكي بطاقة المُمرِّضة؟ مِس مريَم يعني!»

أجابتني وهي تُعطيني الكوب الفارِغ: «هعمِل إيه ببطاقتها يا بني آدم».

سألتها بسذاجة: «ولا حتى صورة يعني؟»

أجابتني: «معايا صورة بطاقتها أكيد على الموبايل، بس ليه؟»

بلعت ريقي بصعوبة، وسألتها: «طيّب، لو مش هيضايق حضرتك، مُمكِن أشوفها؟»

سألتني بتحدٍّ: «ليه؟»

أجبتها: «هفهّم حضرتك .. بس أشوفها لو سمحتي».

أخرجت هاتِفها من حقيبتها، التي قبعَت بجوارها أرضًا بلا حراك منذ تركتها هُناك، بحثَت بصعوبة بعض الشيء، بسبب أظافِرها الطويلة، حتى وجدَتْها، وعرضَتْها عليّ.

«مريم إبراهيم حسين عامر».

لكِن الصورة كانَت مُختلِفة بعض الشيء!

فقد كانَت صورة سيدة سمراء، عجوز، ترتُط طرحةً بيضاء كيفما اتفق حول رأسها، وتنظُر إلى الكاميرا التي التقطَت لها صورة البطاقة ببلاهةٍ تُحسَد عليها.

بلعتُ ريقي بصعوبة وأنا أُعيد الهاتِف إليها، ثُم ناولتها الكوب الفارِغ مرّة أخرى، وتحرّكتُ.

نظروا لي جميعًا بدهشة، قبل أن يسألني المِستر خالِد: «رايح فين؟»

لكِنني لم أُجِبه، فلم أكُن قادِرًا على الحديث .. قطّ!

وانطلقتُ إلى وجهتي، التي ربما تكون الأخيرة، دون أن أنبِس ببنت شفة!

والعالم يدور من حولي!

(٢٥)

كتمتُ أنفاسي بمُجرّد اقترابي من الشاليه، حرفيًا ومجازًا، بسبب الرائِحة الكريهة المُنبعِثة منه، وبسبب خوفي الزائِد مما ينتظِرني بين جدرانه، أو بمعنى أصحّ ممّن ينتظِرني بين جدرانه!

قاومتُ خوفي وتردُدي، وابتلعتُ ريقي بصعوبة، وأنا أقطَع الممرّ الفاصِل بين بوابة الحديقة المفتوحة، وبوابة الشاليه نفسه، سرتُ وأنا عالِق في صراعٍ مُحتدمٍ بين أفكاري ومشاعري.

تجاهلتُ كُل الأصوات التي تصرُخ بي لأهرَب، وكذلِك حدسي الذي جنّ جنونه وهو يُحاوِل إقناعي بالرحيل من هُنا، ووقفتُ أمام الباب الموارِب للحظة، قبل أن أحسِم أمري وأدفعه.

هاجمتني الرائِحة على الفور، تسلّلت من أنفي وتغلغلَت في روحي، وسرَت في نفسي حتى لوّثتها. وقفتُ مكاني للحظة .. رائِحة الموت تدفعني دفعًا لأرحَل، لكِنني تمالكتُ نفسي، واستجمعتُ شتات قوّتي وشجاعتي، ورفعتُ كوفيّتي الحمراء لتُغطّي أنفي المُتجعّد.

هذه المرّة لم أتقدّم أكثر من خطوَتين أو ثلاثًا، قبل أن أقِف في مكاني مرّة أخرى، ثابِتًا كتمثالٍ إغريقي نحتوه ليعرِف مَن بعدَهم معنى الخوف وتعريفه، فرُبما لم يكُن العالَم ليجِد تعريفًا أقوى للخوف والرُعب مما ارتسم على قسمات وجهي.

فأمام عيني، قبع جسدٌ على الأرض، لكِنه لم يكُن جسد أنثى هذه المرّة، بل جسد رجُل .. رجُل أعرِفه جيدًا، وأثِق فيه كثيرًا.

استلقى جسد كريم بيه بلا حراك على الأرض، مُلقًى على ظهره،

ورغم بركة الدّماء القانية التي اتّسَعت حول رأسه في هالةٍ حمراء مُخيفة، إلا أنه كان لا يزال حيًّا، فصدره يعلو ويهبط بمُعدلٍ ثابت، وإن كان ببطءٍ شديد.

اقتربتُ منه بخطواتٍ بطيئة وتأمّلتُ رأسه، الذي شُجّ بعُنف من الخلف، والتمثال الرُّخامي الفاتِح المُلقى أرضًا الذي لوّثته الدّماء، ولم أكُن بحاجةٍ لخبير ليشرَح لي تفاصيل ما حدث هُنا، فالموجودات تقُص القصّة بأكملها، دون أن تُخفي شيئًا.

أمّا جُثّة السيّدة، فقد اختفَت! لم تكُن في مكانها، لكِنني أعتقِد أنني أعرِف أين هي الآن!

قطعت صالة الشاليه بخطواتٍ سريعة، حتى وَصَلتُ لبابٍ مُغلق، كُنت أعلم جيّدًا ما يُخفيه خلفه، فتصميم هذه الشاليهات مُتشابِه إلى حدّ التطابُق، ووقفتُ خلف الباب وأنا أحاوِل التنفُّس، باذلًا قصارى جُهدي للهدوء.

علمتُ جيّدًا ما ينتظِرني بالداخِل، فلم تكُن مُفاجأة، بالطبع خدعتني المظاهِر، وسقطتُ أسيرًا لخداعها ..

كان يجِب عليّ مُلاحظة شعرها المُصفّف بعناية فائِقة، وأظافِرها المُنمّقة الإكليريك، المطليّة بلونٍ زاهٍ لا يُشبِه أظافِر من مارَسَت الطّب يومًا، ناهيك عن عطرها الذي علّق عليه كريم بيه وقال إنه من أشهَر العطور وأبهظها ثمنًا.

كُل هذه أشياء فوّتُها بغبائي، ولم أنتبِه لها. فمِن المعروف أن المُمرّضات لا يُطلِقنَ عنان أظافِرهنّ سواء الطبيعيّة أو الإكليريك،

لأنهنّ يحتجنَ لاستخدام أيديهنّ بحُريةٍ في الكثير من الأشياء التي تحتاج ليدٍ طبيعيةٍ تمامًا.

ناهيك طبعًا عن عطرها النفّاذ الذي تفوح رائِحته بدرجةٍ كافيةٍ لإيذاء المرضى الذين يُعانون من ضيق التنفُّس أو أي شيءٍ له علاقة بالصدر.

وهنا بدأت أتذكّر المزيد من الأشياء، مثل نظرة الفزع المهولة التي احتلّت عينَي مدام شاهيناز يوم مُشكِلة الأستاذ حُسام، رأيتها تهزُّ رأسها نفيًا وعيناها مُتّسِعتان ومليئتان بالخوف الشديد، يبدو أنها يومها حاولت الاستنجاد بي، لكِنني ظننتُها فزِعة من صراخ الأستاذ حُسام ومُحاولته الخرقاء لاقتحام المنزِل.

كم أنا غبي!

أخذتُ نفسًا عميقًا، وأطلقته بعُمق، ثُم فتحت باب الحمّام بهدوء، وبالداخِل رأيتها، مُنهمِكة في مُحاولة حمل جُثّة السيّدة، لتضعها في حوض الاستحمام، الذي لم يكُن فارغًا، بل احتضَن بين جنباته جُثّة أخرى، جُثة رأيتها من قبل، وبدأ معها كُل شيء، والكثير والكثير من الثلج!

جُثّة الدكتور النفسي التي رأيتها من قبل فوق ضهر الحوت، والتي اختفَت بعدها بساعات قليلة، الآن أعرِف أين اختفت، وأين ذهبَت! يبدو أنها اكتشفَت أننا رأيناها، وقرّرت نقلَها إلى هُنا في مُحاولةٍ بائِسةٍ لتبديد مخاوِفنا تجاه جريمة القتل.

لكِن كيف لفتاةٍ بنحالتها أن تنقِل جُثّة رجُل ثقيلة من وإلى ضهر

الحوت؟ بينما تُعاني هُنا لرفع جُثّة سيّدة أصغر حجمًا وأخف وزنًا؟ هل لديها شريك آخر؟ هل كريم بيه هو شريكها؟ واختلفا حول شيءٍ ما فضربته على رأسه؟

لكِن لا، ضربتني صاعِقة الفهم، فسرَت كهرباء المعرِفة في خلايا مُخّي، لتُضيء ظلام جهلي.

وفَهِمت .. فَهِمتُ كُل شيء.

أخذتُ نفسًا عميقًا آخر، مُتجاهلًا رائِحة الموت، وناديتُها: «أميرة!»

التفتَت فجأة، بعدما انتبهَت لوجودي للمرّة الأولى، ثُم ظهرَت أمارات الغضب على وجهها وهي تقول: «كيف عرَفت؟»

لم أُخبِرها بالطبع عن اللحظة التي استغللتُها بعد دخول المِستر خالِد لدورة المياه المُلحقة بمكتبه الصغير، وبحثتُ في دفاتِر القرية بحثًا عن هويّة مالِك الشاليه الذي رأيتُ الجُثّة فيه، وعَرَفتُ أنها سيّدة تُدعى أميرة.

وعندما عرَفتُ أن المُمرّضة، مِس مريَم الحقيقيّة، ليسَت هي الشابّة الحسناء التي عرّفتني بنفسها بصفتها مُمرّضتها، اكتملَت القطعة الأخيرة من الأحجية!

وفهمتُ كُل شيء!

سألتها: «أنا عرفت كُل حاجة، وقبل ما تفكّري تقتليني زي ما قتلتيهم». وأومأتُ برأسي إلى الجُثّتين، قبل أن أُضيف: «لازِم تعرفي إن مستر خالِد عارِف كُل حاجة، وبيتّصِل بالشُرطة من مكتبه دلوقتي».

بالطبع لم يكُن هذا صحيحًا، لكِنها لم تعرِف تلك المعلومة، وأعتقِد أنه لا داعي لأن تعرِفها في الوقت الحالي.

نظرَت للجُثّتين، وهزّت رأسها قائِلة: «لأ .. لأ .. دول كان لازِم يموتوا».

أجبتها: «مش إحنا اللي بنحدّد مين لازِم يموت ومين لازِم يعيش!»

صرخَت وعيناها تغرورقان بالدموع: «لأ .. فيه ناس لازِم تموت! فيه ناس لازِم تتقتل!»

هززتُ رأسي نفيًا وقُلت: «مفيش مُبرّرات للقتل».

«لأ فيه .. قتل كِلاب زي دول له مُبرّرات».

«متحاوليش تقنعيني!»

«اسمعني بس، ولو أقنعتك .. نتكلّم!»

«بقولّك متحاوليش .. مفيش مُبرّرات للقتل!»

«مين اللي قال؟ إنت! تعرَف إيه إنت عن القتل؟ تعرَف إيه عن مُبرّرات القتل؟ تعرَف إيه عن الدوافِع اللي خلتني أقتِلهم؟»

صمتت للحظة، ثُم قالَت من بين دموعها: «إنت حتى مش عايز تسمعني .. مش عايز تديني فُرصة أفهّمك!»

نظرتُ إلى شاشة هاتفي للحظة، وقُلت: «تمام، معاكي عشر دقايق تحكيلي فيهم الموضوع، بس بشرط .. تقولي الحقيقة وبس! أي كلمة كدا ولا كدا! هتّصِل بالمِستر ييجي بنفسه لحد ما البوليس يوصَل».

نظرَت لي ودموعها تخونها وتسقُط على وجنتَيها، وقالَت بصوتٍ مُختنِق: «طيِّب .. هقولّك كُل حاجة». أخذت نفسًا عميقًا وأضافَت: «كُل حاجة بدأت سنة ٢٠٢٠ .. وتحديدًا .. في شهر أكتوبر!»

(٢٦)

أكتوبر ٢٠٢٠

انتهى المُطرِب الشهير بأغانيه الذائِعة الصيت ونكاته السخيفة من تصوير فيديو كليب أغنيته الأخيرة، بدا جليًا لكُل الموجودين في موقع التصوير مدى انسجامه مع بطلة أغنيَته المُصوَّرة الجديدة، خصوصًا أن هُناك شائِعة بوجود علاقة تجمَع بينهما. رغم أنها مُجرَّد إشاعة، إلا أن الجميع كانوا مؤمِنين تمامًا بأنه لا يوجَد دُخان بدون نارا

عاد الجميع إلى أماكِنهم، انتهى التصوير لذلِك اليوم، وبدأ الجميع يُلملِمون أشياءهم استعدادًا للرحيل، وعاد الجميع إلى الأماكِن المُخصَّصة لهم، وهكذا عاد مُطرِبنا إلى الـ (كارافان) الخاص به، وهو يُمطِر مُساعِده بوابل من النُكَت السخيفة، ولم يملك المُساعِد المسكين سوى الضحك كيلا يُطرَد من وظيفته.

دخل النجم إلى الـ (كارافان) وأغلق الباب خلفه، خلع ملابسه بمُساعدة مُساعِده، ودخل للاستحمام، وبمُجرَّد أن كاد ينتهي، صاح مُناديًا مُساعِده: «بقولّك إيه يا مُصطفى .. روح نادي لمرمر تيجي تونّسني شويّة».

ترنّد مُصطفى للحظة، وكاد يُخبره بأشياء كثيرة، أهمها أنه لا ينبغي أن يعرِف أي أحدٍ في موقِع التصوير بعلاقته بها، لكِنه آثر الصمت مُبتلِعًا كلِماته، وذهب ليأتي بها، وحتى عندما أخبرته: «طيّب روح إنت وأنا جايّة وراك».

نظر في الأرض وأجابها بخجلٍ مُهذَّب: «مينفعش والله يا سِت هانم، النجم قال رجلي على رجلك».

وهكذا انصاعَت له، وطلبَت منه انتظارها بالخارِج قليلًا، وبالفعل خرجَت له بعد عدّة دقائِق، وهي ترتدي فُستانًا مفتوحًا وتضَع زينة كامِلة. نظر لها مُصطفى بدهشة، وهو يسأل نفسه: *هي عمِلِت كُل دا إمتى؟*

لكِنه لم ينبس ببنت شفة، وما إن وَصلا إلى الباب، وطرقه استعدادًا للدخول، حتى فَتَح له النجم وهو يرتدي روبًا أحمر، وقال مُرحّبًا: «أهلًا أهلًا يا مرمر .. تعالي .. اتفضّلي يا قمر». ثُم أشار لمُصطفى بطرفٍ خفي، وهي الإشارة التي فَهِمها مُصطفى فقال: «طيّب يا نجم، هروح أنا أجيب لكم حاجة ساقعة من .. ». تلفّت حوله بحثًا عن أي شيء، لكِنه لم يجِد، فأشار إلى اتجاهٍ عشوائي وقال: «من هناك!»

دخلت مرمر وتأمّلت المكان بدهشة، ثُم قالَت: «إنت قاعِد في الكارافان دا كُله لوحدك؟»

قهقه النجم وقال: «لا خُدي بالِك أنا مش بحب الحسد .. بس بحب النمر».

حاول أن يحتضِنها من الخلف، لكِنها تملّصَت من بين يدَيه بصنعة لطافة وقالَت وهي تدفعه بعيدًا: « بلدي أوي الطريقة اللي مَشّيت بيها مُصطفى».

قال وهو يبتسِم: «غبي». ثُم نظر في عينَيها وحاول احتضانها مرّة

أخرى: «وحشتيني أوي».

قالت له وهي تدفعه بعيدًا برفق: «وانت أوي».

تظاهَر بالغضب وقال: «طيّب بتبعِديني ليه؟ إنتِ مش عارفة إني بحبّك؟»

قالَت له بلين: «وأنا كمان بحبّك، بس أنا سبق وقُلت لك إن سكّتي الحلال».

قال بغضب، حقيقي هذه المرّة، وهو يبتعِد عنها: «بس إنتِ عارفة إني مينفعش أعمِل أي حاجة في الحلال دلوقتي». استدار بتشنُج ونظر لها قائِلًا: «وعارفة دا كويّس أوي كمان».

قالَت: «ماشي، عارفة .. بس مش فاهمة ليه يعني!»

قال: «عشان مراتي اللي معايا دلوقتي صعبة أوي، وشرِسة، وهتعمِل أي حاجة عشان تحافِظ عليّا. دا طبعًا غير مشاكلي مع الزفتة اللي قبلها، اللي دايرة في كُل حتة تقول إني سرقت كليتها!»

قالَت له بصرامة: «مفيش مُشكِلة، خلينا نستنى لحد ما توفّق أوضاعك».

حاول احتضانها مرّة أخرى وهو يقول: «طيب ما نوفّق أوضاعنا دلوقتى، وأوعدك هنتجوّز بعدين».

دفعته بعيدًا، بغضبٍ هذه المرّة، وهي تقول: «أنا عايزة أمشي».

جرحَت الدفعة كبرياءه، فصفعها بقوّة وهو يقول: «إنتِ فاكرة نفسِك مين يا بِت؟ انتِ مُجرّد كومبارس يا حبيبتي؟ موديل

رخيصة! الألف منك بجزمة نجم زيي!»

شعرَت بالإهانة فقالَت: «ولمّا أنا مُجرّد موديل رخيصة .. بتجري ورايا زي الكلب ليه؟» دفعته مزّة أخرى وقالت: «سيبني أمشي، وإلا قسمًا بالله .. .». انحنَت وأمسَكَت بحذائها في يدِها وقالت: «ما هضربك غير بالجزمة على وشّك، وهخلّي فضيحتك على كُل لِسان».

دفعته بعيدًا عن الباب، وخرجَت، لكِن قبل أن تُغلِق الباب سَمِعته يقول: «تمام .. تمام أوي. هنشوف مين فينا اللي فضيحته هتكون على كُل لِسان».

أغلقت الباب بعُنف ورحلَت وهي تُتمتِم ببضع كلِماتٍ على غِرار رجال آخر زمن، وشيء له علاقة بالكِلاب أو أبنائها!

***

استيقظَت من نومِها في الصباح التالي على رنّة هاتِفها المحمول، اللعين يرِن بلا توقُّف، أمسَكَته وبكسل تأمّلت شاشته قبل أن تعتدِل على فراشها، سبعة وسبعون مُكالمة فائِتة من أرقام غريبة، أربعمائة وعشرون رسالة واتس آب، مائتا رسالة إنستجرام، ناهيك عن بقية التطبيقات.

شعرَت بحرارة الهاتِف بين يديها، وهو أمر طبيعي نظرًا للظروف التي مرّ بها، رنّ الهاتِف مرّة أخرى، أجابَت ووضعَت الهاتِف على أذنها، سَمِعت رجُلًا يسأل: «مرمر؟»

قالت بتردُّد: «أيوه! مين؟»

قال: «باسِل من إي تي بالعربي، بتّصل بيكي عشان أعرَف رأيك في

الإشاعة المُنتشِرة!»

سألته بحيرة: «إشاعة إيه؟»

صمت للحظة قبل أن يقول: «إنتِ لسّه معرفتيش؟»

قالت بدهشة حقيقية: «لا». ثُم سألته بنفاد صبر: «فيه إيه؟»

قال: «الناس كُلها بتقول إنّك راجِل مُتحوِّل، مش سِت، وإنّك لسّه .. لسّه عندك الأعضاء الذكرية زي ما انتِ! إيه تعليقك على الكلام دا؟»

أنهَت المُكالمة وهي تشعُر بالخوف، دارَت بها الدُنيا، ابتلعَت ريقَها بصعوبة، ويداها ترتجِف، وبدأت تتفحّص الإنترنِت.

وأدركت الأمر ..

يقول الجميع إنها رجُل متحوِّل، وليسَت أنثى كامِلة، وأنها لا تزال تمتلِك الأعضاء الذكرية، وأنها تحرّشَت/ تحرّش بالنجم الشهير أثناء تصوير الأغنية.

فكّرَت في نفي الأمر، لكِن من ذا الذي سيُصدّقها؟ فكّرَت في الخضوع لفحصٍ طبي، لكِن هل سيُصلِّح هذا من الأمر؟ فكّرت في التجاهُل، لكِن هل هذا حل؟

أخيرًا، فتحت الواتس آب بينها وبين المُطرِب الشهير، ووجدَت منه رسالة متنها كلِمة واحِدة: «*بالشِّفا*».

قبل أن يُحظرها من كافة مواقِع التواصُل الاجتماعي، ويتزكها وحيدة في قارِبٍ هش في مواجهة مُحيطٍ غاضِب من الشائِعات

الفدمّرة!

فهل ستنجو منه؟

(٢٧)

اتَّسَع الطريق أمام السيّارة فانطلقَت دون حِساب، من الأشياء الجميلة والمُمتِعة فيما يتعلّق بالقيادة؛ أنها لا تحتاج لكثيرٍ من التركيز. وقبل الاعتراض على الجُملة السابِقة، أريدَك أن تتخيّل عدد المرّات التي استغرقتَ فيها في التفكير أثناء قيادتك لسيّارتك، ووجدتَ نفسك قد وصلتَ لوجهتك دون أن تدري! أي أنّك قُدت سيّارتك، وعبرت من بين –وبجوار– مئات السيّارات دونما تركيز، وكأن جسدك مُبرمَج على القيادة بشكلٍ آليّ في حال انشغال عقلك.

وهكذا انطلقَت السيّارة تقطَع الطريق إلى شاليهها في الساحِل الشمالي، وانطلقَت هي وسط أفكارها المُتضارِبة، تُحاول ترتيبها قليلًا؛ علّها تصِل لأي شيءٍ منطقي تفهَم منه كيف آلت أمور حياتها إلى هذه النُقطة.

***

لم تقدِر على مواجهة المُجتمَع بعد الإشاعة التي وصمتها بالعار، حتى عندما أجرَت التحاليل والفحوص الطبيّة اللازِمة، ادّعى الجميع أنها تقارير غير صحيحة، وأنها (فنكوش) على حدّ قول أحد مُقدّمي البرامِج الشهيرين. كما أن أدوارها في الفترة الأخيرة انحصرَت في المُتحوّلين جنسيًا فقط، حتى إن أحد المُخرجين عَرَض عليها دور (شابٌ) يشعُر بأنه أنثى؛ مُبرّرًا ذلِك بأن ملامحها مُناسِبة للدور.

أما المُطرِب الشهير؛ فلم يتوقّف عن العمل، ولم يتوقّف عن الغِناء، ولم يُحاسِبه أحد على الإشاعة المُدمّرة التي وصمَها بها.

لم تجِد مرمر بُدًّا من الانعزال، وتركِ هذا المُجتمَع بأسره. وبمرور الوقت، لم تغد تُحاوِل تبرير موقِفها، أو شرح نفسها، أو حتى التواصُل مع أي أحد. وتوقَّفت عن الرد على اتصالات ورسائِل المُخرجين ومكاتِب الكاستينج. وحبسَت نفسها في منزِلها؛ ظنًّا منها أن الوِحدة والبُعد عن البشر هُما أفضَل شيء مُمكِن.

لكِنها لم تكُن بمُفردها!

لوّث الاكتئاب وحدتها، وأزّق مضجعها. سمّم أفكارها، ومرّر حلو حياتها. أبى أن يتركها وحيدة؛ فصبغ كُل أفكارها وأحلامها باللون الأسود. شلّ انطلاقها نحو مُستقبلها، وجثم على صدر آمالها فخنقها.

كادَت شقّتها الصغيرة أن تكون (زريبة)؛ بل وإن جئنا للحق .. كانَت (زريبة).

فالملابِس في كُل مكان، قذرة كانَت أو نظيفة. أما بقايا الطعام فقد تناثرت يمنةً ويسرة، فتعفّن بعضها، وتحلّل بعضها الآخر. وهو ما جاء بالضيوف الجُدد، كالذُّباب، والهاموش، والخنافِس، وبالطبع لا مانع من بعض الديدان هُنا أو هُناك، وفأر أو فأرين في الأركان.

لم تعُد تجِد أطباقًا نظيفة تأكُل فيها؛ فلجأت لتناوُل الطعام في الأطباق القذِرة. وكذلِك الأكواب، فأصبحت تشرَب الماء في أكواب ملوّثة بأشياء لا تعرِفها حقًّا. حتى انتهى بها الأمر – بطبيعة الحال – مريضة، وهكذا اتّصَلَت بشقيقتها لتأتي لنقلِها للمُستشفى!

وعندما دخلت المسكينة إلى شقتها؛ شهقت ووقفَت في مكانها تتأمّل القذارة من حولها بغير تصديق!

نقلتها شقيقتُها إلى المُستشفى، وتأكّدت من تلقّيها للعلاج اللازِم، ثُم تركتها وعادَت للشقة، وفي غضون ساعتين – أو يزيد قليلًا – تحوّلت الشقة من (زريبة) لمكانٍ يصلُح للسُكنى.

وعندما تماثلت مرمر للشِفاء، اقترحت عليها شقيقتها الحصول على بعض المُساعدة الطبيّة. أبَت مرمر، وصمّمَت شقيقتها. ولأن الزّن على الآذان أمر من السّحر، انتهى بها الأمر بالتردُد على عيادة الدكتور/ حازِم رشاد.

مرّت أول جلسات بشكلٍ طبيعي، وبذل حازِم قصارى جُهده ليُعيد ثقتها بنفسها، كما أنه حاول مرارًا وتكرارًا إقناعها بأن انعزالها لن يأتي بأي نتيجة سوى تأكيد الإشاعة اللعينة، وأنه ينبغي عليها الخروج للعالَم ومواجهة المُطرِب القذِر بمدى قذارته.

لكِن مرمر لم تكُن من مُحبي المواجهات والباحثين عن الصِّدامات؛ لذا آثرت الصمت ولم تنوِ الخروج لمواجهة أي أحد. كما أنها مُصابة بصدمة من مدى هشاشة مُجتمَع الفن؛ وبالتالي لا تُريد – ولا تنوي – التعامُل معهم مرّة أخرى.

وبدأت علاقتها بالطبيب تأخُذ منحًى آخر، فلم تعُد الجلسات مُخصّصة للحديث عن حالتها النفسيّة؛ بل أصبحت مُخصّصة للحديث عن مدى أنوثتها، وعن مدى جمالها الصارِخ وفتنتها الطاغية. وهو الكلام الذي كانَت مرمر في حاجةٍ ماسّةٍ لسماعه؛ خصوصًا بعد أن قضت شهورًا تُعامَل كشابّ!

سَمِعَت .. وفَهِمَت. فأدرَكَت .. وفكّرَت. ثُم لانت .. وذابَت. سلّمَت .. واستسلَمَت.

وانتهى بها الأمر بين أحضانه، فهو الرجُل الوحيد الذي جعلها تشعُر بأنوثتها بعد أن ضمرت. ورغم رفضها التام للاستسلام في أحضان رجُلٍ خارِج نِطاق الحلال في البداية؛ إلا أن الأمر شرعان ما انتهى بها في أحضان طبيبها. لأنه أطرَب مسامعها بكُل ما احتاجَت سماعه في تلك الفترة من حياتها، وجعلها تشعُر بكُل المشاعِر التي تضوَّرَت جوعًا إليها.

***

هدّأت من شرعة السيّارة قليلًا، رأت تجمُّعًا لبعض السيّارات على جانِب الطريق، فظنّت أنها حادِثة، اقتربَت لتُشاهِد الحادِثة كعادتنا جميعًا في مثل تلك المواقِف، لكِنها شرعان ما انتبهَت لأنها عمليّة النصب الشهيرة المُتعلّقة بالعطور، والتي يعرِفها الجميع تقريبًا.

لذا شرعان ما انطلقت بسيّارتها، غير عابِئة بنداء البائِع/ النصّاب الذى ركض خلف سيّارتها وهو يعِدُها بفيلا هدية لو اشترت منه زجاجة عطر بعشرة جُنيهات، فكما ترى .. إنه عرض لا يُقاوَم!

وما إن انطلقت السيّارة على الطريق الخالي المفتوح، حتى غرقت في أفكارها مرّة أخرى!

***

هكذا تحوّلت الجلسات من جلساتٍ نفسيّة، لجلسات غرام، ثُم لجلسات جنسيّة!

وبدأ حازِم يُخبرها بقصصٍ عن مريضاته اللاتي يقعنَ في غرامه؛ لكِنه تركهُنّ جميعًا من أجلها هي. وبدأت تشعُر بأهميتها في حياته،

وتقع في غرامه أكثر فأكثر، وتعدّدت وتكرّرت لقاءاتهما، وغرقت في بحر غرامه الحرام دون حِساب.

حتى جاءَت اللحظة التي غيّرَت كُل شيء .. للأسوأ .. وللأبد!

***

خرج حازِم من الحمّام وهو يُجفّف رأسه بمنشفةٍ وردية اللون، بينما استرخَت هي في الفراش، عارية، وإن غطّت جسدها البض بملاءة خفيفة كشفَت عن مفاتِنها أكثر مما سترتها.

جلس على طرف الفراش وهو يُلقي بالمنشفة جانبًا بإهمال، وقال: «أنتِ خطيرة».

ضحكت في خجلٍ أنثوي وهي تقول: «أنت السبب، إنت اللي خليتني خطيرة كدا».

تنهّد قبل أن يقول: «أنا مش مبسوط مع كيكي يا مرمر».

دفن وجهه بين كفّيه، وزفر بحُزن، اقتربَت منه، ورنّتَت على ظهره برفقٍ ولين، ثم قالَت: «عارفة».

رفع وجهه، واغرورقت عيناه بالدموع، قبل أن يقول: «بس مبسوط معاكي أوي .. عشان إنتِ مش زيّها، وعُمرِك ما رفضتي ليّا طلب».

ابتسمَت وقالَت: «أنا بحبّك .. وعُمري ما هرفُض لك طلب».

سألها بلهفة: «أبدًا؟»

قالَت بحنوٍ بالغ وهي تحتضِنه من ظهره: «أبدًا».

اعتدل ونظر في عينَيها وهو يقول: «طيّب أنا عايز حاجة هدية لعيد ميلادي، بس .. بس أنا عارِف إنك هترفُضي وهتكسري بخاطري وبنِفسي».

احتضنته مرّة أخرى، وقالَت: «عُمري ما هعمِل كدا .. وعد».

نظر في عينَيها وقال: «اوعِديني الأوّل إن صورتي مش هتتهز في نظركِ أبدًا مهما حدث».

قالَت له بحنوّ وهي تُقبّله في وجنته برفق: «أوعدك يا حبيبي.. أوعدك طبعًا».

نظر في عينَيها وقال بمُنتهى الجدية: «عايز نجرّب نبقى مع كيكي».

امتلأت عيناها بالرُعب وقالَت بدهشة: «إيه؟ قصدك إيه؟»

قال وهو يقترِب منها: «عايز نجرّب الموضوع سوا .. إحنا التلاتة».

ابتعدَت عنه وقالَت بدهشة: «ابعد عني .. متلمسنيش». ثُم قالَت وهي ترتعِد: «أنا عايزة أمشي .. عايزة أمشي حالًا».

نهضَت وبدأت ترتدي ملابسها، قبل أن تسمع صوتها من خلفها، التفتَت بدهشةٍ وشاهدته يُمسِك هاتفه، الذي يخرُج منه صوتها وهي تتأوّه وتتغنّج بأنوثة، اقتربَت منه وعيناها تتّسِعان بدهشة عندما شاهدت نفسها معه في الفراش على شاشة الهاتِف.

سألته بخوف: «حازِم .. إيه دا؟»

أجابها: «دا الفيديو اللي هينزِل على النّت والناس كُلها هتشوفه لو

مسمعتيش كلامي وعملتي اللي بأمُرِك بيه!»

ضربته بيدَيها على ظهره وهي تصرُخ: «إنت إيه؟ شيطان! أنا مش مصدّقة إنّك عملت كدا بعد ما وثقت فيك وسلّمتك نفسي!»

نهض من مكانه وأمسك شعرها وجذبه بقوّة، وهو يقول بوحشيّة حيوانيّة: «اسمعيني يا مرمر، أدامِك حاجتين مالهُمش تالِت .. يا الفيديو ينزِل على النتِ والناس كُلها تشوفه .. أو تعملي اللي أمرتِك بيه!»

سألته بصوتٍ مُرتعِد: «وكيكى؟ عارفة؟»

قال وهو يتزُك شعرها: «ملكيش دعوة بكيكي دلوقتي .. خليكي في نفسِك».

همسَت لنفسها: «أنا مش مصدّقة .. مش مصدّقة .. حقيقي مش مصدّقة!»

نظر لها وهو يقول: «طيّب، إنتي مش قولتيلي إن عندك شاليه في الساحِل الشمالي؟ خلاص هنروح نحتفِل فيه بعيد ميلادي، وكيكي هتيجي معايا طبعًا بس مش هقولّها .. هقولّها بس إننا رايحين نحتفِل بعيد ميلادي وهناك هنتفاهِم معاها». ابتسم بشخرية وقال: «ابعتيلي لوكيشَن على واتس آب». لوّح بالهاتِف وقال: «ومتفكّريش كتير .. أظن إنك بقيتي خلاص عارفة إيه اللي هيحصَل».

(٢٨)

نظرَت لي وعيناها مليئتان بالدموع، وسألتني: «إتنين زي دول .. عايزهُم يعيشوا؟ طيب ليه؟ عشان يبتزُّوا ناس تانية ويهدِّدوهم بالقذارة دي؟» أومأت برأسها نحو جُثَّة الدكتور حازِم وقالت: «إنت عارِف أنا لقيت على تليفونه كام فيديو زي دا؟ عارِف ابتز كام بنت؟ وابتز كام سِت؟ عارِف خرب كام بيت؟ وكام عيلة؟ إنت فاهم أد إيه هو شيطان؟»

نظرتُ إليها دون رد للحظة، ثم حسمتُ أمري وقُلت: «ولو .. مش بإيدينا إحنا اللي بنقول ونحاسِب الناس».

نظرَت لي بدهشة وقالت: «ناس؟ دول شياطين!»

قُلت: «ولو .. دا مش من حقُّك!»

أجابتني بصراخ: «ومن حقه هو إنه يعمِل كدا؟ إنت عارِف .. بعد ما قتلتهم، خرجت أتمشى وأنا خايفة، بحاول أصفِّي ذهني وأرتِّب أفكاري، سمعت مدام شاهي بتصرُخ صريخ مكتوم من جوا الشاليه بتاعها، بصّيت عليها، ولقيتها قاعدة لوحدها، حاولت تشرَح لي وفهمت منها إن المُمرِّضة بتاعتها مشَت، في الأول قُلت مليش دعوة وهمشي وأسيبها، وبعدين قُلت لأ .. أنا هضرَب عصفورين بحجر واحِد .. هاخُد الكُرسي أنقِل بيه الجُثتين أرميهم في الميّة، وهمثِّل إني المُمرِّضة بتاعتها كام يوم عشان أراقِب الجو وأضمَن إني هبقي موجودة وسطكم عشان أقدَر أتصرِّف لو الدنيا باظِت».

سألتها في غير فهم: «أنا فهمت الجُزء دا، بس اللي مش فاهمه ..

ليه رميتي الجُثّة على ضهر الحوت؟»

صرخت: «رميته في الميّة، في قلب الميّة، بس هو قذِر .. ومن كُتر قذارته .. البحر مقدرش يبلعه، والموج رماه على ضهر الحوت مرّة تانية .. وساعتها شُفتوه».

«وليه شلتي الجُثّة؟»

«عشان متبلّغوش الشُرطة .. لو جُم هيكتشفوا كُل حاجة».

«ومدام شاهي؟»

«والله كُنت براعيها، بس هي كانِت خايفة مني، ومعاها حق، فغالبًا كانِت هتبوّظ كُل حاجة، نقلت جُثّة حازِم الشاليه وجبت تلج، وكنت بحط تلج حواليه في البانيو عشان الريحة، بس سِبت جُثّة كيكي هناك .. لحد ما ريحتها طلعت واكتشفتوا وجودها».

«وليه متصرّفتيش معاها؟»

«بسببك! قاعِد رايح جاي! بتفرُك طول الوقت! من هنا لهنا! ومن شاليه وشاليه! إنت السبب في كُل دا .. إنت السبب».

نظرتُ لها بدهشة، ودون أن أنطِق بكلمة، فسألتني: «ها .. إيه؟»

سألتها بدهشة: «إيه؟»

«اقتنعت بكلامي؟»

«إنتِ قتلتيهم!»

«آه قتلتهم .. بس هُما شياطين! ويستاهلوا الموت! أنا الضحية ..

مش الجاني!»

صرخت فيها: «مفيش مُبرِّرات للقتل!»

صرخت من بين دموعها: «لأ فيه .. فيه!»

سألتها: «والغلبان اللي كسرتي التمثال على دماغه برة دا؟»

أجابتني بشراسة: «كان هيفضَح كُل حاجة! كان هيعرَف الحقيقة! مكانش لازِم يدخُل في وقت زي دا».

انهارَت أرضًا على رُكبتَيها، وارتجَّ جسدها من البُكاء، لم تنطِق كلمة أخرى، وعَرَفتُ أنه دوري، يجِب أن ألعَب دور مُحرِّك الأحداث الآن، لذا أمسكتُ هاتفي ونظرتُ إليه، دون أن أُغفِل النظر إليها، وطفقتُ أُفكِّر في اختياراتي ..

إما أن أقتنِع بمُبرِّراتها، لأن هذين القذرَين يستحِقَّان القتل فعلًا، ويستحِقان أن تُنظَّف الدُنيا من شرورهما، وأساعِدها في إخفاء الجُثَّتين أو على الأقل في الهروب دون أن يُقبَض عليها!

أو أتَّبِع حدسي، الذي يصرُخ بأنه لا مُبرِّرات للقتل، وأننا كبشرٍ ليس من حقّنا أن نُقرِّر مصائِر غيرنا من البشر!

فكَّرتُ للحظةٍ ثُم حسمت قراري.

سألتني: «هتعمِل إيه؟»

أخذتُ نفسًا عميقًا، وقُلت: «خلاص .. أنا خدت قراري، وعرفت هعمِل إيه».

تمت بحمد الله

في حال أعجبتك الرواية، يُمكِنك مُشاهدة حلقات برنامِج «بتاع الرُعب» على اليوتيوب على «القناة التانية»، وكذلِك بودكاست «Top Six» مع الكاتِب باسم الخشن على نفس القناة.

وقريبًا جدًا سيُمكِنك الاستماع إلى حلقات بودكاست «بتاع الرُعب» على سبوتيفاي وأنغامي وأبل بودكاست وغيرها من المنصّات الصوتيّة المُختلِفة.

شكر واجِب لكُل من ترك أثرًا في حياتي هذا العام

الجميلة/ شيمو كتّاب

الصديقة العزيزة/ ولاء رضـا

الصديق العزيز/ محمد حجازي

والحلوين:

سعاد مصطفى محمد رضا منيعم

محمد راضى محمد على على

سارة يونس يويا الشريف

منة خميس ماما/ إيناس الخبيري

ماما/ فاتن العبودي زينب مُرسي

هبة مُؤمن إيمان مؤمن

محمد جمال فرانك حلمي مطر

إيلينور سيف ياسمين سيف